

عيسى ابن انسان

ثروت عكاشه

عيسى ابن الإنسان

جبران خليل جبران

الترجمة العربية:

د. ثروت عكاشة

اللوحات المصوّرة:

جبران خليل جبران

لوحتى الغلاف:

الفنان يوسف فرنسيس

الإخراج الفنى:

مجدى عز الدين

الطبعة السادسة ١٩٩٩ م

رقم الإيداع بدار الكتب: ٩٨/١٥٢٥٥

الترقيم الدولى: 0 - 0510 - 09 - 977 - I.S.B.N.:

حقوق الترجمة محفوظة للمترجم

© **دار الشروق**

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

تليفون : ٤٠٢٢٢٩٩ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧

البريد الإلكتروني : dar@shorouk.com

الطباعة: مطابع الشروق بالقاهرة

جبران خليل جبران



عيسى ابن الإنسان

نقله إلى العربية
دكتور ثروت عكاشه

دار الشروق



(عيسى)

عيسى ابن الإنسان

هذا كتاب ذو موضوع تربطه وحدة عقلية وعاطفية معاً. فمن الناحية العقلية، أراد «جبران» أن يقول رأياً في المسيح غير ما ألف الناس أن يقرأوه عن المؤرخين الذين تناولوا حياته بالشرح والتحليل. ولعل العنوان الذي وضعه جبران للكتاب وهو «عيسى ابن الإنسان» دليل واضح على ما اتجه إليه الكاتب من رأي في السيد المسيح. ولجبران أن يعبر عما يشاء من آراء، وإذا كنا نحترم رأيه فإن ذلك الاحترام لا يمنعنا من أن يكون لنا فيه رأي مغاير. وأياً كان الخلاف في هذا الرأي بيننا وبين جبران، فالذي لا شك فيه أن جبران صاغ آراءه في قالب أدبي رائع يفيض بالحب والتجرد. وهنا تأتي الوحدة العاطفية في كتاب جبران الذي يزخر بعاطفة رقيقة يتسامى بها خيال شاعر فإذا هي أدب شائق تمتع يعرض لجوانب مختلفة مفعمة بالحياة، فتحسّ وأنت تقرأ الكتاب أن صفحاته صور من حياة تتحرك بين يديك وتحت بصرك.

فهو يحاول في الكتاب أن يعرض ماذهب إليه الناس على اختلافهم في المسيح، فيضع إلى جوار رأي الذين أحبّوه رأي الذين أبغضوه وقاوموه، ولكن روعة الخيال في الكتاب تجعل الرأيين يلتقيان على حب المسيح والثناء لخصومه. آراء سبعين متكلماً عاشوا منذ ما يقرب من ألفي سنة كان منهم الحائق المتحامل، وكان منهم المحبّ المجامل. يسوق جبران ما يراه لهم على ألسنتهم، ولم ينس أن يكون واحداً من هؤلاء حين ساق في خاتمة الكتاب كلمة على لسان رجل من لبنان بعد مرور تسعة عشر قرناً على ظهور يسوع.

يحدثك جبران عن يسوع بألسنة معاصريه ، بلسان التلميذ ولسان الجار ولسان الصديق ولسان العدو . بألسنة هؤلاء المعاصرين جميعاً ، منهم من ذكر في الإنجيل ومنهم من اختلقته مخيلة جبران . غير أن ميخائيل نعيمة يذهب إلى أن ثمة فروقاً بين يسوع - كما جاء ذكره في الإنجيل - ويسوع ، كما تخيله جبران :

«يسوع كما في الإنجيل ولد في بيت لحم من عذراء ، ويسوع الذي تخيله جبران ولد في الناصرة من رجل وامرأة .

ويسوع كما ذكر في الإنجيل يبكي ويتألم ، ويسوع كما ذكره جبران فوق الدموع وفوق الألم .

ويسوع في الإنجيل يُظَلّ المساكين والفقراء بروحه ، ويسوع عند جبران لا يعرف المسكنة ولا يرى غبطة في الفقر .

ويسوع في الإنجيل يهتف على الصليب : إلهي لماذا تركتني ! لأنه كما يرى جبران لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف في بشريته ، ويسوع جبران كما تخيله لا ضعف فيه فهو يهتف : «لماذا تركتنا» .

وهكذا كان جبران راغباً في إظهار يسوع بعيني نفسه ، ينسج الموعظة تحاكي الموعظة التي ذكرت في الإنجيل ولكنها تغايرها مبنياً وروحاً ، ويسرد الأحداث فيسقط منها أو يضيف إليها متأثراً بما تمليه روحه حين يحذف وحين يضيف .

وجبران ليس مؤرخاً في كتابه يستلهم الأحداث كما وقعت وكما تُروى ، بل هو شاعر وفنان يستلهم من شعره ويستلهم من فنه ، ومن أجل ذلك أضفى على يسوع ما يفيض به قلبه من إعجاب ومحبة وتقديس .

* * *

ثم إن أدب جبران في هذا الكتاب كما هو في غيره مظهر من مظاهر صراعه مع الألفاظ التي يستخدمها كأدوات للتعبير عما يريد . ولقد كان هذا الصراع مقدمة للثورة التي قامت في أعقاب الحرب الأولى في الحقل الأدبي على تحكّم قدسية الأساليب والألفاظ . فكما قامت ثورة اجتماعية إذ ذاك تهدف إلى تحرير الفرد من الاستبداد والسيطرة ، كذلك قامت ثورة أخرى في الأدب تهدف إلى تحرير اللغة والفكر من قيود الأساليب وأسر الألفاظ . على أن هذه الثورة مضت ولم تمسّ الجوهر إلا في القليل ، كما جاء في تحليل « جان لوسير » لصوفية جبران في كتابه الصغير العميق : « النزعات الصوفية عند جبران خليل جبران » .

وعلى أية حال حدّدت هذه الثورة طريقها ، فعُنيت بأن يكون الأساس في التعبير سيطرة المعنى على الصور اللفظية . ولم يكن جبران مستطيعاً أن ينجو من هذه الثورة والسّير في مدارها ، فقد كانت طبيعة حياته تفرض عليه هذا الاتجاه ، وهو المغترب الذي يعيش في بيئة جديدة عليه مختلفة عن بيئته الشرقية .

بدأ صباه بثورة عاصفة ، ثم هدأت هذه الثورة فحملته إلى نوع من الاستقرار المشوب بالاكْتئاب ، ثم انتهت به إلى ميل جارف للعزلة والبعد عن الناس والمجتمعات . وكان لهذه الثورة على مراحلها المختلفة أثر في إنتاج جبران . يروي عنه فؤاد أفرام البستاني أن النسخة الأولى من كتابه « النبي » - وهو الكتاب الذي حقّق له الشهرة والمجد والثراء ، وانتشر انتشاراً واسعاً في أمريكا حتى غدت فقراته تُرْتَل في الكنائس والأديرة - كُتِب بالعربية ، ولما عرضه جبران على أمّه قالت إن الكتاب رائع لكنه كُتِب قبل الأوان . وكانت هذه الملاحظة سبباً في أن يترك « جبران » الكتاب خمس سنوات ، وقد غابت

أمه خلالها . ولما عاد إلى كتابته مرة أخرى كتبه بالعربية أيضاً ، فلما راجعه ذكر ما قالت فيه أمه فمزقه من جديد . ثم قرّر جبران أن يكتب الكتاب بالإنجليزية فكانت له تلك الشهرة التي نالها ، وحدّد مكانة جبران بين كتّاب عصره ، فترجم إلى أكثر من عشرين لغة منها لغته الأصلية العربية ، لكن جبران لم يرض عنها ، فقرر أن يعود مرة أخرى يحاول كتابته بالعربية .

هذه الرواية تقفنا على أن جبران كالكثير من رواد عصره ، عاشوا حياتهم الأدبية في صراع بين المعنى والمبنى ، أو بين المضمون والشكل ، أو بين ما يدور في عقولهم ووجدانهم من أفكار وانفعالات وبين الألفاظ التي يعبرون بها عن هذه الأفكار والانفعالات . وهو ما يسوقنا إلى أفكاره وانفعالاته ؟ ماذا كان يريد جبران أن يقول ؟ وكيف كانت هذه الألفاظ تعجز عن حمل ما يريد أن يقوله للناس .

إن جبران القلق ، لم يكن يرضى عن أعماله ولا عن إنتاجه . فقد بعث إلى «نسيب عريضة» طالباً إليه ألا ينشر مقالاته في كتاب «دمعة وابتسامة» . وعندما نشر «نسيب» الكتاب أورد في مقدمته ما كتبه إليه جبران قائلاً :

ذاك عهد من حياتي قد مضى بين تشيب وشكوى ونواح

ومضى جبران يقول :

« إن الشاب الذي كتب «دمعة وابتسامة» قد مات ودُفن في وادي الأحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ » .

بل حينما نقدت الكاتبة «مي زيادة» كتابه : «دمعة وابتسامة» كتب إليها يتنصّل من مسؤولية الكتاب ، بل من مسؤولية أعماله جميعاً فقال في رسالته :
« لا تذكر أعمالى الماضية لأن ذكرها يؤلني . لأن تفاهتها تحوّل دمي إلى

نار محرقة ، لأن نشوفتها تولد عطشي ، لأن سخافتها تُقيمني وتقعدي ألف مرة ومرة كل يوم . لماذا كتبتُ تلك المقالات وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضنّ بالقطرات فأدّخرها وأجمعها ساقية ؟ » .

على أن رسالته إلى « مَيّ زيادة » تمضي فتكشف عما كان جبران يدّخره في نفسه . .

« لقد وُلدتُ وعشت لأضع كتاباً واحداً صغيراً لا أكثر ولا أقل . وقد ولدت وعشت وتألّمت لأقول كلمة واحدة حيةً مجنّحة . لكنني لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي . لم أحفل بذلك بل كنت ثرثاراً ، فيا للأسف ، ويا للخجل ! وبقيت ثرثاراً حتى أنهكت الشرثرة قواي ، وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتي وجدّنتي ملقًى على ظهري وفي فمي حجر صلد » .

وفي رسالة أخرى إلى « مَيّ » يقول جبران :

« أتعلمين يا مَيّ أني مافكرت في الانصراف الذي يسميه الناس موتاً إلا وجدت في التفكير لذة غريبة ، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل ، ولكنني أعود فأذكر أن كلمة لا بد من قولها . لا لم أقل كلمتي بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان ، وهذا يجعل الوقوف عن العمل مرّاً كالعلقم ، أقول يا مَيّ ولا أقول لسواك ، إنني إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها ، فإنني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روعي » .

إذن كان جبران صوفياً عميق التأمّل ، وكان يؤمن أن له كلمة لا بد من أن يقولها ورسالة لا بد من أن يؤديها قبل أن يرحل ، فإن رحل فسيعود مرة أخرى ليؤديها ، وبهذا كان يؤمن بالبعث وبتناسخ الأرواح وبفلسفة الشرق وعقائده .

لقد كان دائما يردد : « أنا دائما في انتظار . أنا دائما أنتظر ما لا أعرفه ، ويخيل لي في بعض الأحيان أنني أصرف حياتي مترقبا حدوث ما لم يحدث بعد » . كما كان يقول : « جئت لأقول كلمة وسأقولها ، فإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد ، فالغد لا يترك سرا مكنونا في كتاب اللانهاية ، والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بالسنة كثيرة » .

وجبران في كل كتبه من « المجنون » إلى « السابق » إلى « النبي » إلى « رمل وزيد » إلى « يسوع ابن الإنسان » كما تقول مَيّ « لا يسمع إلا صوت شخص واحد ، وإلا فالأصوات العديدة فيها محدثة عن شخص واحد . ولا أرتاب في أن جبران عندما كان يستنطق كلا من هذه الأشخاص أو يستنطق الآخرين عنها إنما كان واضعا نصب اهتمامه الجزء الذي يرى هو أنه يماثلها في شخصيته . وهو لا يقتصر في الوصف على معاني الفهم والحب والتقدير ، بل هو مغرم بمعاني السخط والامتهان واللعنة والاضطهاد والتعذيب ، لأن هؤلاء كأولئك من صميم الطبيعة البشرية وفي صميم الانفعالات البشرية . يسوع ابن الإنسان هو ابن وسطه وابن زمانه ، فكل من الذين يحاذونه أو يعاشره أو يستفيدون منه أو يسمعون عنه ، كل من أولئك يماثله أو يهاجمه وفقا لاستعداده الإدراكي ، ووفقا كذلك لمصلحته الشخصية حسية كانت أو أدبية . ولما كان جبران ملما بحدود العقلية والمدارك عليما بأغلال المصالح والمنافع ، غير جاهل حق ما نسميه شرا في أن يقوم إلى جانب ما نسميه خيرا ، فهو دواما الساخط الراضي ، الثائر المستسلم ، المناقض الموافق ، المستنكر المستحسن . فما الحياة إلا الحياة الحاوية لملايين الأشكال والمعاني والرموز ، لا ينضب منها تيار إلا لينبثق آخر ، ولا تجف فيها حديقة إلا ليثمر سواها ، ولا تتوارى خلالها صورة إلا لتتهيا أخرى . وجبران أخذ بنظرية التناسخ ليس في الموجودات والصور والأشكال فقط بل في الشخصيات الإنسانية أيضا . وها هو ذا كتاب

«يسوع ابن الإنسان» يأتي بشاهد على هذا الاقتناع عند جبران في أجمل قصائد هذا الكتاب ، عنيتُ القصيدة الخاتمة الموضوعية على لسان رجل من لبنان بعد مرور تسعة عشر قرناً على مجيء يسوع . وأنا أبتّ في أن هذا الرجل هو جبران» .

* * *

في هذا الضوء من النظرة لأدب جبران وفكره ، يمكن أن نقرأ كتابه عن السيد المسيح ، وسنجد في هذا الكتاب ، كما نجد في سائر إنتاجه ، يعتصر نفسه ليقدّم لنا جزءاً مما آمن بأنه رسالته وأنه كلمته .

نجده يروي على لسان ذلك المحامي « منسى » الذي كان في بيت المقدس :

« ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصروا على أن يضعوا نهاية لوجوده وما كان أولاهم ألا يفعلوا . فإني لأرى أن خصومتهم ستزيد من قدره ، وتُحيل من لينه قوة. أو ليس غريباً أنك تُكسب الرجل شجاعة إذا عارضته ؟ وأنت حين تُعوق قدميه عن المسير تزوده بجناحين ؟ ولست أدري من هم أعداؤه. غير أنني على يقين أنهم حين خافوا رجلاً مأمون الجانب قد أعاروه قوة وجعلوه خطيراً » .

كما يصوره لك وهو يروي على لسان « منوس الپومبي » وهو يتحدث إلى رجل من اليونان :

« وبينما نبني نحن الرومانيين لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم . ونحن حين نطرب ، نغني ونرقص حول مذابح ميركوريوس وچونو ومارس وفينوس ، أما هم فحين يطربون يلبسون رث الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرماد .. وعيسى ، هذا الإنسان الذي عرف الله بأنه مصدر السرور ، قد عذبوه ثم أسلموه إلى الموت » .

بل إن جبران يصوره وهو يسوق طعن الطاعنين فيه أقسى ما يكون ذلك الطعن وأعنفه وأشدّه وأحرجه ، وذلك حين يقول على لسان يوسف الملقّب بالعاذل «يوستوس» :

«كانوا يقولون إنه سوقيّ ، نبات غير متميّز ورجل فظ غليظ. ويقولون: ما كان يمشط شعره غير الريح ، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غير المطر . ويعدّونه ذا جنة ويعزون كلماته إلى الشياطين» .

هذا ما ساقه جبران عنيّفاً على لسان الطاعنين ، فانظر إلى ما علّق به جبران على هذا الطعن في هوادة ورفق ولين :

« ولكن ما هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدّياً، ولسوف يبقى التحديّ إلى الأبد متّصلاً» . .

وغير بعيد من هذا كلمة «أرملة من الجليل» . فلقد أجرى جبران على لسانها الحقّد على عيسى والخطّ من شأنه ، لكنه ما كاد يختم حديثها الذي امتلأ بغضاً وامتهاناً ، حتى كشف سرّ ذلك بجملة قصيرة أوردها على لسانها حيث تقول : «نعم إني أكره الناصري ، وسوف أكرهه إلى آخر حياتي ، لأنه سلبني ابني البكر - ابني الوحيد» .

نعم . ما يكاد ينتهي إلى هذا الحد من قولها حتى تجدك قد عرفت مبعث هذه الكراهية وعزوتها في يسر إلى هذا السبب الذي صرّحت به الجليلية ، وهو فقدانها ابنها البكر الوحيد وذهابه مع عيسى حوارياً من الحواريين ، فهي لم يعنّها أن يعيش ابنها للوجود الحق ، وإنما الذي عناها وأفزعاها أن يعيش ابنها بعيداً عنها مع عيسى .

وكذلك كان جبران وهو يُنطق «حنانيا» رئيس الكهنة ، فإذا هو يُطلق لسانه

بما ينطلق به لسان من هم في مكانته ، بحقد الموتور وبغض المغلوب على أمره ، فإذا كلامه على عنفه هباء ، وإذا منطقته على قسوته هراء . فقد جرّده جبران من الحجّة متظاهراً بأن الحجّة له ، وذلك حين يقول على لسانه : «وبعقله الراجح العالي الصوت شهر بنا جميعاً وتحداًنا، لهذا قويتُ على أن أصلبه» .

ويبقى من حديث المبغضين بعد هذا حديثان ، أحدهما لأورويّا الشيخ الناصري ، وثانيهما لكاهن حدّث من كفر نحوم . والحديثان كلاهما يتفقان على اتهام عيسى بالتمرد صبيّاً ، وبالطيش فتياً ، وبإعلانه الحرب على قومه رجلاً قوياً .

* * *

وما ساق جبران حين ساق إلا حياة رجل عظيم ، فهكذا ينشأ العظماء وهكذا ينتهون . إن «جبران» لا يجرّد كتابه من حديث الكارهين فيبدو مغرضاً مقصراً ، لكنه لا يسكت عن مقارعتهم الحجّة ومعارضتهم الرأي . وليس هذا منهجاً هيّنا على رجل لا يملك نظرة جبران أو رسالته أولاً ، ثم فن القول ثانياً ، ثم خيال الشاعر ثالثاً . كان جبران ذا رسالة وذا فن وذا شاعرية . من أجل ذلك عرض بهذه الوسائل الثلاث : رسالته وفنه وشاعريته لأجل ما يعرض له الباحثون ويدقّ على المفكرين ، ولقد تناوله في يسر وعبر عنه في عذوبة فخرج منه بهذا الكتاب .

وكانت سبيل جبران إلى هذه الرسالة تختلف عن سبيل الكثيرين ، فهو لم يبلغ مبلغه فيها بعقله ، يناقش أسبابه فيقيم الفروض ويرتب النتائج ويلائم بين هذه الفروض وتلك النتائج ، ويشير بين يديه مشاكل قلّ أن تسلم معها رسالة . بل بلغ جبران ما بلغ بروحه ، فهو قد تلقّف ما يؤمن به عن هوى ، تعشّقته نفسه وهام به فؤاده ، فإذا ما آمن به أصبح قطعة من نفسه وقطعة من فؤاده . من

أجل ذلك كانت صلته بتلك المشكلة التي أثرت ولا تزال تثار حول طبيعة المسيح هيبة يسيرة. لا يعرف هذا الخلاف الذي وقع فيه غيره ، لأنه عرف المسيح كما هداه إليه حبه لا كما هداه إليه عقله .

* * *

إذن كان جبران ممن غلب حبهم عقلمهم ، فكان فيه هذا التسامي ، وكان فيه هذا التجرد ، وكانت صلته بالأشياء يسيرة هيبة ، لا يعنيه أن يرضي الناس أسلوبه ما دام هو قد ارتضاه ، فالمرء لا يؤمن إلا عن رضى منه بما يعتقد ، ولا يخضع في هذا الإيمان لما يريد الناس ويرضونه .

وبهذه النفس وبتلك الروح تناول جبران قضية عيسى ، وإذا هذه القضية أنشودة عذبة يتغنى بها المحبون . إنه يقول على لسان يوحنا بن زبدي :

إنكم لترون نفرًا منا يدعون عيسى « المسيح » ، وأن آخرين يسمونه « الكلمة » ، ونفرًا ثالثًا يقولون له « الناصري » ، وغيرهم ينادونه « بابن الإنسان » وسأجهد جهدي في أن ألقى على هذه الأسماء من النور الذي فاض عليّ لتبين .

فالمسيح الذي وجد من قديم الأزمان هو قيس من نور الله حلّ في روح الإنسان . وهو نسمة الحياة محلّ فينا ثم تتخذ لها جسدًا كأجسادنا تسكنه . هو إرادة الله ومشيتته .

هو الكلمة الأولى تودّ لو جرت في أصواتنا وعاشت في آذاننا لعلنا نعيها ونتدبرها .

وإن كلمة الله ربنا قد بنت لها بيتًا من لحم وعظم . واستوت بشرًا ، مثلي ومثلك ولقد وُلد عيسى الناصري ونشأ كما نشأ . كان إنسانًا .

أما المسيح الكلمة الذي كان في البداية ، والروح التي تريد لنا أن نعيش حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى واتحد معه .

والروح كانت يد الله الخبيرة ، وعيسى كان القيثارة.

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى اللحن الذي رددتها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق.

هو الذي كان يسير معنا في الشمس ويدعونا أصدقاءه.

كان ابن الإنسان هو عيسى المسيح ، الرحيم الكريم الذي أراد أن يكون لنا جميعاً.

كان هو عيسى الناصري الذي قاد إخوانه إلى المسيح ، وإلى الكلمة التي كانت كلمة الله منذ الأزل .

* * *

على هذا النحو وفي مثل هذا الايمان وبذلك المنطق الروحي يكتب جبران ، وفي مثل هذه اليسر أيضا استقامت لجبران حجته عن أمومة عيسى ، وإنه ليعرضها على لسان مريم المجدلية فتقول :

« لقد أبغضتموه لأن نفراً قال : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل ..

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زفت إلى الشمس ... وأن بين هؤلاء الذين يحبونه وأولئك الذين يبغضونه، هؤلاء الذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون به، هوة فاعرة » .

ويروي حكاية عن سوسنة الناصرية جارة مريم :

« وذات يوم عندما كان في الثانية عشرة من عمره أخذ بيدي رجل أعمى وعبر به مسيل ماء حتى بلغه مأمنه من الطريق العام.

وسأله الرجل الأعمى مُقراً بفضلته : أيها الصَّبِيّ الصغير مَنْ تكون ؟

فأجاب : لست هذا الصَّبِيّ الصغير ، إنني أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أعزَى

فضحك الرجل الأعمى وقال : نَعَمْ ما تقول يا بَنِيّ الصغير ، ولكن مَنْ تكون

أمك ؟

فأجاب عيسى : لست لك ذلك الابن الصغير ، وإن أمي لهي الأرض .

فقال الرجل الأعمى : إذن فتدبّر ، لقد قادني ابن للربّ والأرض عبر المجرى .

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ، وسوف تلام عيناَيُ قدميك .

هكذا في منطق الروح لا منطق العقل يصوغ جبران ويتحدث ، وهو يحب للناس أن يدركوا ما أدرك ، وأن يفسحوا لأرواحهم قبل أن يفسحوا لعقولهم ، فهم بأرواحهم مهتدون إلى ما لا سوف تهتدي إليه عقولهم .

* * *

أما حوارِيّوه والمتصلون به ، فقد عنى جبران بأن يسوق على ألسنتهم ما وصفوه به ، وما ردّوه عنه في أسلوب شعري أخاذ وعاطفة متدفقة .

نظم من ذلك كله باقة منسّقة ، ليس بعدها شيء لمن أحب عيسى فأخلص في حبه له . وفي هذا كله درس وعظة ، وقدوة وأسوة ، وبطولة وشجاعة ، فيه الصدق والوفاء ، وفيه ألم الغدر ومرارة الندم . فيه هذه الحكم الكثيرة ، وفيه هذا التاريخ كما رآه جبران ، وفيه هذا المنطق الروحي الذي يشق سبيلاً جديدة أمام الذين يريدون أن يكون لهم إيمان في صفاء الماء ، ويقين في طهر

الصلاة ، وعقيدة في نقاء الطبيعة . نحسّ ذلك كله في مقطوعات هذا الكتاب التي وردت على لسان بيلاطس ، ويوحنا ، ونعمان ، وأحاز ، وسمعان ، ومريم المجدلية ، في سائر تلك العبارات الشعرية التي انفرد بها جبران .

هذه مريم المجدلية تصفه :

« لقد كان يحكي ليلا لا يغشاه ظلام ، ونهاراً لا تعكّره جلبة النهار ... لكنني عندما وقفت بين يديه أتحدث إليه كان رجلاً من الرجال ، وكانت طلعتة أقوى من أن أتطلع إليها » .

واستمع إليه يقول على لسان زكّا : « أجل لقد كان في وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمر . لكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل وكان بوّده أن يغني أغنيته » .

بل إن عيسى نفسه يخاطب حواريه ، وقد مرّ بهم على سجن في برج داود فيقول : « أنتم سجناء ولكن لستم وحدكم ، فما أكثر السجناء الذين يسعون في فضاء الأرض لم ينل أجنحتهم مقصّ ، لكنهم أشبه بالطاووس يصفقون بريشهم ولا يستطيعون التحليق » .

ثم استمع أخيراً إلى برثولماوس وهو يقول عن عيسى ، أو استمع إلى جبران يجري هذا الحديث على لسان برثولماوس :

« لم يكن الناصري مع الأجراء حرباً على السادة ، كما لم يكن مع السادة حرباً على الأجراء ، ما ناصر رجلاً على رجل .. لقد كان رجلاً فوق الرجال . وتلك الدفقات التي سرّت في عروقه نبضت زاخرة بالألم والقوة في آن معاً » .

هذا بعض ما أرّخ به جبران لعيسى على منهجه ، وبهذا يعرض جبران صفحات من الحب النقي في أسلوب جميل ، يزيده الحب واليقين جمالاً .

وما أعفي هذا جبران من أن يؤخذ عليه أنه جاوز التعبيرات التي ألفها مَنْ
يخضعون أمور الدين لأساليب المنطق .

* * *

وبعد . فلقد رثى جبران عيسى ، رثاه على لسان غيره ، ورثاه بلسانه هو ،
وهو في الحالين يفصح عما يحسّ ، لكنه مع الأولى يفصح عن حزن يتصوره
وفي الثانية يفصح عن حزن يستشعره هو

وإليك بعض ما صاغه على لسان فوميا كبيرة الكاهنات في صيدا :
خُذْن القيثارة وغنّين معي الفتى الجريء الذي قهر مدائن الرجال ، وغلب نظائرها
في السهول .

تلك التي تلتف كالأفاعي في الرمال وهو بعد لَمَّا ينازل الأقرام ، وإنما صارع آلهة
بها سغب إلى لحومنا، وظمأ إلى دمائنا

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه على لسان أندراوس :

إن مرارة الموت لأهون من مرارة العيش دون عيسى

خرست الأيام وسكنت حركتها حين أسكنه القضاء ، ولم يبق غير الصدى لمحمله
ذاكرتي يردّد كلماته ولا يردّد صوته .

ثم استمع إلى جبران وهو يندبه بلسانه هو في تلك المرثية الطويلة التي يشير
طولها إلى عمق ما في نفس جبران من يقين وحب وإيمان :

« إن صَحْبِكَ ما زالوا معنا عوناً وسنداً .

وكذلك أعداؤك قوة وطمأنينة .

أمك معنا

أرى بهاء وجهها في محيا الأمهات جميعاً

تطوي بيدها الأكفان في حنان .

وأحب للقارئ بعد أن استمع لجبران يُملّي على السنة هؤلاء الذين اختارهم لكتابه أن يستمع له في هذا الحديث الذي جرى بينه وبين صديق له هو الفيلسوف ميخائيل نعيمة حول هذا الكتاب ننقله كما أثبتته ميخائيل في كتابه «جبران خليل جبران» .

قال جبران . . . [الحديقة] ما برحت في خاطري ومثلها [موت النبي] ولكن ما قولك في كتاب عن [يسوع] ؟ يسوع يساور أفكار من زمان ، وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميسا - يعني ميخائيل نعيمة - يتحدثون فيه ويتكلمون عنه ويصورونه كما لو كان سيدة بلحية ، فهو جميل لكنه مسكين ، وضعيف وفقير ووديع ومتواضع ، وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذاً وساحراً . وسئمت العلماء يأتونك بالأبحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أو ليدحضوا وجوده وهو أكبر حقيقة في حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مآحكاتهم السخيفة أكفاناً تحجبه عن الفكر والقلب فلا هو بشر مثلك فتقتدي به ولا هو إله تعبد . ويسوع بشر مثلي ومثلك ، وقد بلغت قحة أحد الكويّتين الأمريكان أن صور يسوع تاجرًا محنكًا يرمي بكل تعاليمه إلى غاية مادية بحتة . فتأمل أو عندي أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة ، وأنه قط لم يكن مسكينًا أو متمسكًا ، وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف .

فقال ميخائيل نعيمة من غير أن يجادله في رأيه : يسوع موضوع لا ينضب

مهما تناولته الألسن والأقلام ، ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوي أن تكتب عنه يا جبران؟

قال جبران : لقد اهتديت إلى قالب يعجبك يا ميسا . وبعد أن اهتديت إلى القالب أصبح الكتاب في فكري كأنه قد كُتب ، فسأجعل معاصري يسوع يتحدثون عنه كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكوّن صورة يسوع كما أراه أنا ، وهو قالب يناسب أسلوبى كل المناسبة .

وهكذا نبتت الفكرة في رأس جبران ثم أخذت تتطور وتتشكل حتى استقامت له ، وما إن استقامت له الفكرة حتى أخذ يُلهم هؤلاء كلهم ويستلهم من هؤلاء كلهم ، لا يأبه لما يعانى من داء أخذ يدبّ في أوصاله ، ومضى يسابق الداء والداء يسابقه ، وكان أخشى ما يخشاه أن يسبقه الموت إليه قبل أن يسبق هو الموت إلى إنهاء هذا الكتاب . ولقد سبق جبران الموت فأتم كتابه في صيف سنة ١٩٢٨ ، وما إن أهل الخريف من تلك السنة حتى كان الكتاب مطبوعاً . ولقد كتب جبران في أول أكتوبر من هذا العام إلى ميخائيل نعيمة يقول : كتاب يسوع تناول صيفي مريضاً وصحيحاً . ولا أكتمك أن قلبي ما برح فيه برغم أنه قد صدر ، وطار من هذا القفص .

وقد يكون من قبيل المصادفة أن يطالعنا إميل لودفيج بكتابه « ابن الإنسان » عام ١٩٢٧ ، ثم يطالعنا جبران بكتابه « عيسى ابن الإنسان » بعد ذلك بعام . ولعل الروح التي أملت هذه الفكرة عليهما هي فزعهما من تلك الصورة المشوهة المتناقضة التي طالما صُوّر بها المسيح . لكن الأمر لم يجرى على لسان هذين الكاتبين على نمط واحد . فبينما فزع لودفيج من تناقض أحداث تاريخ المسيح ومصادره ، ورأى « أن الأناجيل الأربعة التي هي كل ما لدينا متباينة ،

يدحضها ما هو غير نصراني من المصادر (*) ، سثم جبران صورة المسيح في أفكار « الذين يؤمنون به يصورونه كما لو كان سيدة بلحية - كما أسلفنا - فهو جميل لكنه مسكين ، وضعيف وفقير ووديع ومتواضع ، وفي أفكار الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذا وساحراً» .

ومن هذا الاختلاف اختلف منهجها في البحث ، فاختلف لودفيج لنفسه طريق المؤرخ العالم ، وأخذ ينقّي تاريخ المسيح فلا يثبت من أحداثه ما اختلفت فيه الأناجيل ، وحاول أن يمسك بالخيط الذي يربط حياة المسيح أولها بآخرها ليتبين من ورائه سمات شخصية المسيح السلوكية والنفسية والفكرية ، ويتابع تطور حياته تطوراً طبيعياً لا يحمل تناقضاً ولا غموضاً .

هكذا عمد لودفيج إلى كتابة تاريخ « قلب المسيح » أو في عبارة أخرى تاريخ شعوره ومقاصده وعوامل قيادته للناس وميوله وأحلامه وتبدّد أوهامه ، وما قام في نفسه من صراع بين الإقدام والإحجام ، بين البأس واليأس ، بين الدعوة والسعادة . وقد اعتمد لودفيج على النصوص المذكورة في الإنجيل التي شملت ثلث كتابه (على حد تعبير مترجمه عادل زعيتر) لم يضيف إليها إلا ما تصوره للمسيح من « نظرات وأوضاع وأوجه تعبير ووصل بين الفكر والكلام وبيان للأسباب وتسلسل للمشاعر » . وأخرج لودفيج كتابه في أسلوب قصصي عبقرى أخذ يشدّ القارئ إلى المسيح شاباً يتأمل الطبيعة ويناقش أفكار عصره ، ثم رسولا يدعو ويصارع ويُسجَن ويُشدّ على الصليب حياً ثم يختفي جثمانه في قبر بعيد .

(*) إميل لودفيج : ابن الإنسان - ترجمة عادل زعيتر .

أما جبران فلم يكن في كتابه مؤرخاً يستلهم الأحداث كما وقعت وكما تروى ، بل هو شاعر وفنان يستلهم شعره ويستلهم فنه ، يشكّل للمسيح صورة مثالية يراه هو عليها ولكنه يُجريها على السنة معاصريه ، ومن هؤلاء المعاصرين مَنْ ذُكر في الأناجيل ، ومنهم من اختلقته مخيلة جبران .

هكذا كان هدف المؤلفين من البداية : أراد لودفيج أن يرسم للمسيح «صورة منطقية» تتفق مع أحداث التاريخ التي لم يُختلف عليها . وأراد جبران أن يرسم «صورة نموذجية لمسيح مثالي» لا يهّمه أن تنطبق صفاته مع أحداث ما نُقل إلينا من تاريخ . فاختلفت شخصية المسيح عند كل منهما : فمسيح لودفيج «بشر حقيقي» يعيش مشاكل عصره المضطرب بين ثورة اليهود المكبوتة وسطوة الرومان ، بين تزمّت الفريسيين واستمتاع الصدّوقين بالحياة . هو آدمي تعتمل في قلبه الغيرة من يوحنا المعمدان ، ويغريه الطموح إلى أن يؤمن بأنه ذلك «الآتي» الذي بشر يوحنا بأنه «أقوى منه» . هو عند لودفيج إنسان فيه كل صفات البشر ، فهو يجهل عادات أهل القدس ويسيء استعمال الأمثال بالإكثار منها . فيه تقلّب أبناء «الجليل» وتخاذلهم ، وهو يبدأ حياة الدعوة أنيساً ودوداً متفائلاً مبشراً بالحب والمغفرة لا يكره مجالس الخمر والغناء والنساء ، ويملك قدرة على التأثير في الناس بعينيه النافذتين وشخصيته القوية . يملا المرضى ثقة فينهضون من مرضهم أقوياء ، ثم يهمس لهم بالأذياعوا نبأ شفائه إياهم . ثم يداخله الغرور فيتصرف كما لو كان ملكاً سيداً أمراً يتحلل أفكار قدماء الأنبياء في وعيدهم وإنذارهم بسوء المصير ، ويترك تلاميذه يهّلون له وهو يدخل القدس على أتان ، ويدع امرأة تدهنه بطيب غال يحتاج الفقراء إلى ثمنه ، ويمتلى شجاعة فيقلب موائد الباعة والصيارفة القائمة في بيت المقدس ويطردهم خارجه ثم يتخاذل في اليوم التالي فيتركها ويكتفي بالجدل والمناظرة ، ثم يتملكه الغضب فيذهل عن موسم الثمر ، ويطلب في

أبريل تينة من شجرة لا تثمر إلا في يونية فيلعنها حانقًا « لا يأكل أحد منك ثمرًا بعد اليوم » ! ويعتريه اليأس فيستعجل موته بعداء الكهنة السافر حتى يحسّ يهوذا دلائل ضعف المسيح فيشكّ في نبوّته ويتمردّ عليه . وينتهي ضعيفًا في محاكمته ، ضعيفًا في سجنه صارخًا على الصليب متوجّعًا « إلهي . . . إلهي ، لماذا تركتني » !

ليس غريبًا بعد ذلك أن ينكر لودفيج قيامة المسيح ويجعلها من صنع خيال نسوة مولّهات به .

أما مسيح جبران فهو إنسان فيه قبس من نور الله وبشر « ذو قلب سماوي » .

« كان رجلا مثلي ومثلك في مرأى العين وملء الحس وملء السمع ، ثم هو بعد ذلك لا يجتمع معنا على شبه . كان يعيش بيننا لكنه لم يكن منا ، ولقد سار على الأرض ولكنه كان من عالم السماء » ، « وما كان الفتى الناصري إلهاً . هو شاعر يهيم بجمال الطبيعة ، مرح يشهّي النبيذ للشاربين ، يحب الجميع ويعطف على المخطئين ، لا يحتقر إلا المنافقين ، وديع وداعة الرجل المعتز بقوته . أعداء المسيح وحدهم هم الذين اتهموه بالتواضع وبالفرور، بالجهل وبغموض الحديث وبترديد كلام الأنبياء السابقين ، وبالتمرد على ناموس أقوى منه .

إن يكن لودفيج وجبران لم يلتزما حدود الدين المسيحي فيما ذهبا إليه ، فقد جعلنا من معجزات المسيح شيئًا ثانويًا ، « فليس مما يزيد يسوع عظمة . عند لودفيج . أو يحطّ من قدره عزو مائة معجزة جديدة إليه ، أو إنكار أية معجزة له » .

على حين يذهب جبران الى أن « المسيح » هو نفسه المعجزة : « فلو أن معجزاته كلها جمعت بعضها فوق بعض عند موقع قدميه ما بلغت كعبه » .

وبينما ينتهي لودفيج بتمجيد هذا الإنسان الذي خلّده صراعه البطولي من أجل المحبة ، ينتهي جبران متبتلاً مؤمناً بهذا الإنسان الذي يسكن أعماق البشر مسترسلاً في شبه صلاة طويلة لا يتوجّه بها إلا إلى إله .

فإذا انتقلت إلى فلسفة عيسى عندهما وجدناها انعكاساً لمنهجيتهما .

فمسيح لودفيج يبقى في نفس خطوط الفلسفة العامة التي رسمتها الأناجيل ، فهو لا ينقض الشرائع قبله بل يكملها ، ويقدم شعائر اليهود ، ويؤمن بنبوءاتهم القديمة ، ويظل على الإيمان بذات المسيح . طريق الخلاص عند لودفيج : « أنا خبز الحياة ، من يقبل إليّ فلا يجوع ، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً . . . لأنني قد نزلت من السماء ، ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني . إن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمها في اليوم الأخير » .

أما مسيح جبران فإنه يخرج إلى ما هو أرحب من نصوص الأناجيل فهو « يحقق شريعة جديدة ، ويكشف عن عهد جديد » ، وهو يدعو إلى نسيان قول الأنبياء قبله لينصتوا إلى دعوته هو . ركائز فلسفة مسيح جبران هي الحب والتأخي والمسؤولية الاجتماعية والتضامن الاجتماعي . هي دعوة قوية إلى الحياة النابضة بالحب والجمال : إن ملكوتي ليس من ملكوت الأرض ، ولكن حيث يجتمع منكم اثنان على حب ، وعلى الإعجاب بما في الوجود من جمال وبهاء ، وبما فيه من فرح غامر . . ثم على ذكراي » .

إن مسيح جبران يحمل على وجه التحديد رسالة جبران نفسه ، فلقد ظل جبران يردد : « جئت لأقول كلمة وسأقولها ، فإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد » . وأكد أقول إن جبران قد ارتأى في نفسه مسيحاً جديداً فبعث المسيح في كتابه « عيسى ابن الإنسان » ليحمل عنه رسالته .

وعلى أثر صدور كتاب عيسى ابن الإنسان كتب ميخائيل نعيمة كلمة بعنوان «يسوع جبران» جاء فيها في وصف صورة يسوع التي رسمها جبران وتصدرت الكتاب : وجهه جميل ونبيل ، يعلوه غطاء لطيف الشحوب النّام عن شفقة ممسكة بالقلب لا عن أسى رابض في النفس . في فمه الحسّاس صلابة تفهم اللين فلا تجرح ، ورفعة تعرف ذاتها فلا تتضع . وفي أنفه رقة الشعر ودقة الفن واتساق الهندسة . أما عيناه فتنظران إلى أبعد مما تبصران . فيهما رهبة الوحي دون طمأنينته ، واليقين بالنصر دون النصر ، ووحدة لا تلتطفها المحبة ، وعزلة لا يؤنسها نورها . في حاجبيه تقطّب خفيّ كأنه يجهد فكره للوصول إلى سرّ عميق ، وكأنه بلغ عتبة ذاك السرّ ، أما بابه فلا يزال موصدا في وجهه . في جبينه الواسع العالي إباء وعظمة ، وفي شعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه والمسترسل فوق كتفيه طهارة لا تعرف الدنّس . هو وجه معانيه كثيرة وأظهرها إرادة تحاول أن تتغلب على ذاتها أو أن تستر ضعفها ريشما يتم لها النصر .

* * *

هذا كتاب جبران عن « عيسى » .

تاريخ غير ما ألفناه من تاريخ ، في أسلوب قلّ أن نتذوّق مثله بين الأساليب ، يراه قراء العربية في لغة غير اللغة التي وُضع بها أولاً وهي الإنجليزية . ولم يكن الأمر سهلاً ولا هيناً ، فقد كانت الترجمة الحرفية غير صالحة لنقل الروح التي وضع بها جبران كتابه عن المسيح . كذلك كان إيضاح المعنى بإفاضة كاملة في البيان ثوباً فضفاضاً يخرج عما ينبغي أن يتوفر للترجمة من التزام اللفظ كما وُضع في اللغة التي كتب بها . ولقد اتخذت بين ذلك سبيلاً وسطاً ، قدمت به نص جبران بشيء من العناية اللفظية حتى تنعكس بذلك الروح التي وضع بها جبران كتابه عن السيد المسيح في غير إخلال أو

تزيد . وسيجد القارئ أن هذه الطبعة الخامسة تتميز عن الطبعات السابقة بشيء من التعديل والتطوير والتنقيح . واني لأرجو أن أكون قد وفقت في أداء ما صاغه جبران بالإنجليزية في أسلوب عربي يبلغ من نفوس قراء العربية ما بلغه أسلوب جبران من نفوس قراء الإنجليزية .



يعقوب بن زبدي عن ملكوت الأرض

في مدينة اورشليم ، وفي يوم من أيام الربيع ، وقف عيسى في ساحة السوق إلى تلك الجموع الغفيرة ليحدثهم عن ملكوت السموات ، وأنحى باللائمة على الكتبة والفريسيين (*) الذين ينصبون الأشرار ويضعون الأشواك في سبيل من يتشوقون إلى الملكوت .

وكان من بين تلك الجموع فريق يُظاهر الفريسيين والكتبة ، ويحاول جاهداً أن يُمسك بعيسى وبنا ، فنأى عنهم عيسى بجانبه واستدبرهم ، وولّى وجهه قبل الشمال من المدينة ، وقصد البوابة وهو يقول لنا :

« لما تحن بعد ساعتي

وسوف أقول لكم الكثير مما عندي

وكم من واجبات عليّ قضاؤها قبل أن أستسلم . »

ثم أضاف ، وفي نبرات صوته الغبطة الفرح :

« لنمض إلى الشمال كي نستقبل الربيع . هلموا معي إلى التلال فقد ولى الشتاء ، وها هي ذي ثلوج لبنان تتصوّب صوب الأودية لتشارك الجداول هزيجها .

(*) الفريسيون نحلة من اليهود في زمن المسيح ، نشأت في فارس وعاشت في القدس ، واشتهرت بالتعصب لاعتقادهم بأنهم أشد تمسكا بناموس موسى . على أنهم كانوا يتظاهرون بالتقوى والصلاح في حين كان سلوكهم مرذولا فنعتهم المسيح بالقبور المصنّعة ، ولذا كانوا في طليعة مضطهديه .

وها هي ذي الحقول والكروم قد نفت الكرى عن جفونها ، ونهضت يقظى
تحى الشمس بتينها الأخضر وأعناها الغضة » .

ومنذ ذلك اليوم مضى لسبيله يمشي ونحن في إثره .

وفي أصيل اليوم الثالث انتهينا إلى القمة من جبل التجلي . هناك أشرف
عيسى على السهول وما تضم من مدن ، والتفت إلينا يقول وهو باسط
ذراعيه ، وقد أشرق وجهه إشراق التبر المذاب :

« تطلّعوا إلى الأرض في جلبابها الأخضر ، وانظروا إلى الجداول وهي تجرّ
أذيال ثيابها المطرزة بالفضة .

ألا ما أجمل الأرض ، ثم ما أجمل ما تحمل فوق ظهرها !

بيد أن هناك وراء كل ما ترون وتشاهدون مملكة ثانية سيكون الحكم فيها
إليّ ، فإذا آثرتموها على سواها وكنتم في ذلك جدّ راغبين ، حللتهم إلى
جوارى حاكمين .

وكما سأطالع الناس سافراً غير مقنّع ، كذلك ستطالعونهم . ولن تجتمع لنا
يدّ على سيف ولن تمسك بصولجان ، ولسوف يحبّنا الناس حبّاً يحوطه الأمن ،
ولن يستشعروا منا خوفاً »

هكذا استرسل عيسى ، وإذا عيناى كأن عليهما غشاوة لا تُبصران ما على
الأرض من ممالك وما فيها من مدن بأسوارها وبروجها ، وإذا قلبي يخفق وهو
يساير الهادي إلى ملكوته .

وهنا خطا يهوذا الإسخريوطي - في تلك اللحظة عينها - إلى الأمام ، حتى إذا ما
كان من عيسى قاب قوسين أو أدنى قال له : هلاً ترمي ببصرك إلى ممالك العالم
الفسيحة . ثم هلاً ترمي ببصرك إلى مدائن داود وسليمان التي ستكتب لها الغلبة

على الرومان . فإذا ارتضيت اليهود لك شعباً ، ورضيت أن تكون لهم ملكاً ، فستجدنا من حولك بسيوفنا وفي دروعنا ، ولسوف نكون لخصمك قاهرين .

وما يكاد عيسى يُدرك ما سمع من يهوذا حتى يلتفت إليه ، وقد اربد وجهه غضباً ، وإذا هو يقول له وإن لصوته لجلجلة الرعد في السماء : «أغرّب عن وجهي أيها الشيطان ، أتحسبني هببت الأرض تلك الأعوام لأحكم جموعاً متراكبة من النمل ليوم واحد؟ إن عرشي لا يحيط به بصرك . وهل ترى مَنْ ينتظم الأرض تحت جناحيه يبغى مآباً إلى عُشِّ عَفَى عليه الهجر وطواه النسيان؟

وهل ترى الأحياء يُكسبهم المُدرَجُون في الأكفان شرقاً وعلواً؟

إن مملكتي ليست من بين ممالك هذا العالم ، وإن عرشي لم يستوف فوق جماجم أسلافكم .

وإذا كنت تتطلع إلى غير ملكوت الروح ، فأولى لك ثم أولى بك أن تدعني ها هنا وتنحدر هابطاً نحو كهوف موتاك ، حيث تضم القبور تلك الرؤوس التي تُوجت في سالف الأزمان وانعقد لها اللواء ، ولعلها ما تزال تمنح رفات أجدادك البركات .

أستطيع أنت أن تُغريني بتاج قد صيغ من النفاية أو الأشواك وأنا الذي أشمخ بجبهتي إلى الثريا !

لو لم يكن الأمر حُلماً قد طاف برؤوس أجيال طواها النسيان لما سمحت لضوء شمسك أن تتجاوز مدى أناتي ، ولا لقمرك أن ينشر ظلي عبر طريقك .

ولولا أنها رغبة أم ، لما تجرّدت عن قماطي ولعدت أدراجي فراراً إلى الفضاء .

ولولا أنه الأسي يعمكم أجمعين ما انتظرت لأذرف الدمع .
من أنت ومن تكون يا يهوذا الإسخريوطي ؟ وفيم عداؤك لي ؟
تُرى هل أتبع لك حقاً أن تقدُرني قَدري . فرأيت أنني جئتُ لأفود جيوشاً
من الأُمساخ ، وأدفع بعجلات أطياف لأصورة لها إلى عدو لا يُعسكر إلا في
أحقادكم ، ولا يدب إلا في مخاوفكم ؟
ما أكثر الديدان التي تزحف على قدمي . . . ولن أنبري للقضاء عليها .
لقد ضقتُ ذرعاً بالهزل والمجون ، وعناني الرثاء للزاحفين الذين يعدّونني
جباناً ، لأنني لم أعل أسوارهم وأخطوبين أبراجهم المحميّة .
ومن أسف أنه حتمٌ عليّ أن آسي لهم حتى نهاية المطاف . ألا ما أرغبني في
أن أخطو نحو عالم أرحب حيث يحيا رجال أعلى شأنًا . ولكن أين السبيل ؟
إن كاهنك وعاهلك يبغيان دمي معا . وسيكون لهما ما يريدان قبل أن
أرحلَ عن هذه الدنيا ، فما بي رغبة في أن أتحدّي القانون ، كما لا أبغي كبح
جماح الطيش والحماقة .
خلّ الجهالة تُنسلُ وتلدُّ حتى تُنهك نَسلاً .
خلّ الضرير يقُد الضرير إلى الهوة .
وخلّ الميت يوارى الميت حتى يُتخَم الثرى بفاكهته المرّة .
إن ملكوتي ليس من ملكوت الأرض .
ولكن حيث يجتمع منكم اثنان أو ثلاثة على حُب ، وعلى الإعجاب بما في
الوجود من جمال وبهاء ، وبما فيه من فرح غامر . . . ثم ذكراي .
وفجأة استقبل يهوذا وهو يقول له :

« أغرب عني أيها الرجل ، فلن يكون لك أبداً سلطان في ملكوتي »

* * *

عند ذلك حلّ الغسق فالتفت وهو يقول :

« لنمض الآن ، فقد أظلمنا الليل . نعم ، فلنمض في الضوء ، والضوء

يسايرنا » .

ثم هبط من التلال وهبطنا معه . وهبط في إثرنا يهوذا ، وإن بيننا وبينه لبعداً شاسعاً .

وحين بلغنا الوادي كان الليل قد جُنّ ، وتكلم توما بن ديوفانيس قائلاً :

« لقد ساد الظلام الآن أيها المعلم ، ولم يعد بوسعنا أن نرى الطريق ، فسِر بنا - إن شئت - إلى أضواء تلك القرية حيث قد نجد الطعام والمأوى » .

فردّ عيسى على توما قائلاً : « لقد قُدتكم إلى الذرى عندما كنتم جوعى ، ولقد هبطت بكم السهول وأنتم أشدّ جوعاً ؛ لكني لا أستطيع أن أمكث بينكم هذه الليلة ، فإني راغب في العزلة »

وهنا خطا سمعان بن يونا إلى الأمام وقال : لا تدعنا نُعاني العودة وحدنا في الظلام ، وأنعم علينا بالبقاء معك ها هنا على هذا المنعطف . إن الليل وظلاله لن يتلبّثا ، وما أسرع ما يطالعنا الصباح إن ارتضيت البقاء بيننا .

فأجاب عيسى قائلاً : « في هذه الليلة ستأوي الذئاب إلى أوجارها ، وستهجع طيور الفضاء في أعشاشها ، أما ابن آدم فلن يجد على الأرض مُتكأ لرأسه . والآن خلّوني إلى نفسي ، هذي هي رغبتى .

وإذا طلبتموني فستجدونني مرة أخرى عند البحيرة حيث لقيتكم .

وهنا مضينا عنه مبتعدين بقلوب يثقلها الهمّ ، فلم تكن بنا رغبة في أن نتركه .

وما أكثر ما تلبّثنا نُدِيرُ إليه وجوهنا متطلعين إليه ، فرأيناه مهيباً في وحدته وهو يتجه صوب المغرب ، إلا يهوذا الإسخريوطي فكان هو وحده بيننا الذي لم يُدِرْ إليه وجهه ليتطلع إليه في وحدته .

ومنذ ذلك اليوم أصبح يهوذا متجهماً معزلاً ، وحدثتُ أن ثمة خطراً يكمن بين محاجر عينيه .



حنة أم مريم عن مولد عيسى

هنا في الناصرة ، وفي شهر يناير ، وُلد عيسى ابناً لبتتي . ولقد هبط علينا ليلة مولده نفر من الشرق جاءوا زائرين ، وكانوا من الفرس [المجوس] أتوا إلى فلسطين بقوافل مديان في طريقهم إلى مصر .

و حين لم يجدوا مكاناً في النزل قصدوا إلينا يلتمسون عندنا مأوى .

وبعد أن رحبتُ بهم قلت : لقد أنجبتُ ابنتي الليلة وليداً ، وفي يقيني أنكم ستغفرون لي تقصيري إذا لم أوفكم حقكم على ربة البيت .

عندها شكروا لي استضافتي إياهم ، وبعد أن فرغوا من تناول العشاء ، قالوا لي : هل لنا في أن نرى الوليد ؟

وكان ابن مريم جميل الطلعة ، وكانت هي أيضاً مليحة حسناء .

وعندما شاهد المجوس مريم وطفلها أخرجوا من حقائبهم شيئاً من الذهب والفضة والمرّ والبخور ، وألقوه كله تحت قدمي الرضيع .

ثم ركعوا وصلّوا بلغة غريبة لم نتيبها .

وعندما قُدتهم إلى غرفة النوم التي هيئت لهم ، كانوا يسيرون وكأنهم خُشع لما شاهدوه .

وما كاد الصباح ينبلج حتى خلّفونا ومضوا في الطريق المُفضي إلى مصر .

لكنهم تحدّثوا إليّ عند الفراق قائلين : إن الصبيّ لم يتجاوز بعدُ من العمر يوماً واحداً ، ولكننا على ذلك قد رأينا نور إلهنا في عينيه ، وابتسامة الربّ

فوق شفتيه . ونحن طالبون إليك أن تحوطيه برعاية حتى يبلغ أن يركبكم
أجمعين .

وما إن فرغوا من حديثهم حتى اعتلوا نياقهم ، وما وقع لنا عليهم نظرٌ أبداً .
وبدت مريم آنذاك في غمرة من العجب والدهشة طغت على فرحتها
بابنها .

وما أكثر ما كانت تُطيل النظر إلى طفلها ، ثم تُولي وجهها قبل النافذة
محملةً في الأفق البعيد وكأنها تتطلع إلى رؤى .
وكان ثمة بونٌ بين قلبها وقلبي .

وشبَّ الطفل ، يكبر جسمه وتقوى روحه على نحو لم نعهده في الأطفال :
كان يميل إلى الوحدة ، صعب المراس ، لا يُسلم قياده لأحد . وما قدرت يوماً
أن أمسّه بيدي ، ومع هذا فقد اجتمع أهل الناصرة كلهم على حبه ، ولم يكن
سرٌّ ذلك ليخفى عليّ .

وما أكثر ما كان يأخذ طعامنا ليعطيه السابلة ، وما أكثر ما كان يمنح الأطفال
ما أعطيه إياه من حلوى قبل أن يتذوقها فمه .

وما أكثر ما كان يتسلق الأشجار في بستانني يجمع الفاكهة ، ولكن لا
ليأكلها هو .

ولقد كان يسابق خلّانه عدواً ، وإذا كان أسرعهم خطأً فقد كان يترى
متعمداً عساهم أن يبلغوا الغاية قبله .

وكان يقول لي في الحين بعد الحين وأنا أصحبه إلى فراشه :

« ألا قولي لأمي ولغير أمي : إن الذي ينام منّي هو جسدي وحده ، ولكن
روحي ستظل معهم إلى أن تهتدي أرواحهم إلى الصباح الذي أريد » .

كم من كلمات معجزة نطق بها في صباه ، ولكن أنى لي أن أتذكرها وقد
بلغتُ من الكبر عتياً ؟

والآن يقولون لي : إن عيني لن تكتحل بمرآه أبداً ، ولكن أنى لي أن
أصدق ما يقولون ؟

فمازلت أستمع إلى ضحكاته ، وأستمع إلى وقع قدميه وهو يعدو حول
بيتي ، وكلما قبلتُ خدّ ابنتي تآرجت ريحة العطرة في قلبي ، وتمثّلت لي صورته
وكانها تملأ حُضني .

ولكن أليس غريباً ألا تتحدّث إليّ ابنتي عن ابنها البكر ؟

لقد كان شوقي إليه يفوق شوقها أحياناً ، وبينما كانت تبدو جلدّة مع النهار
أشبه بتمثال من البرونز كان فؤادي يذوب حسرة ، وتنهمر دموعي جداولاً .

لعلّها على علمٍ بما لا أعلم .

ألا ليتها تحدّثني بما تعلم



عساف الشهير بخطيب صور عن حديث عيسى

ماذا أنا قائل عن حديثه ؟

ربما كانت لمحةً من لمحاته تضيفي على كلماته قوةً تلفت إليه رؤوس سامعيه .

ولقد كان وسيماً يحكي نوراً محيّاه نوراً النهار .

وكان الرجال ، وكذلك النساء ، أكثر شغفاً بالنظر إليه منهم إلى الاستماع إلى حديثه .

لكنه كان في الحين بعد الحين يُرسل الكلمات في قوة وكأنها روح ، وكان لهذه الروح سلطان على مَنْ يسمعونه .

لقد استمعتُ في شبابي إلى خطباء رومه وأثينا والإسكندرية ، لكن الفتى الناصري كان يختلف عنهم .

كانوا يُضيفون على كلماتهم مسحة من الجمال تفتن الأسماع ، وكنت إذا استمعتَ إليه طار عنك فؤداك ، يطوّف جاثلاً في آفاق لم يشهدا أحد من قبل .

وكان إذا روى قصة أو ضرب مثلاً لا عهد للناس بهما في سورية ، فكأنه يغزلهما من الفصول ، كما يغزل الزمنُ السنين والأجيال .

وقد يبدأ قصةً له بقوله : « مضى الحارثُ قُدماً صوب حقله لنشر بذوره » .

أو بقوله : « يُحكى أن ثرياً كان يملك زراعات شاسعة من الكروم » .

أوبقوله : أَحْصَى راع غنمه عند الغروب فعرف أنها نقصت واحدة .
وكانت تلك الكلمات تَرُدُّ مستمعيه إلى نفوسهم الفطرية ، وإلى الغابر من
أيامهم .

فنحن - في قلوبنا - جميعاً حُرَّاث ، وكلنا نحبُّ الكرمة ، وفي مراعي
ذاكرتنا نجد راعياً وقطيعاً وشاةً مفقودة .

وهناك سَكَّةُ المحراث ومعصرة الكروم ويَيدر الطاحون .

لقد كان يعرف مصدر ذاتنا القديمة منذ الأزل ، والخيط الموصول الذي هو
سَدَى نَسِيجِنَا .

كان خطباء الإغريق والرومان يتحدثون إلى جمهورهم عن الحياة كما تبدو
لفكرهم .

وكان الناصري يتحدث عن شوقٍ يُقيم في الوجدان .

كانوا يرون الحياة بُعيون لا يزيد صفاؤها على صفاء عيونكم وعيني إلا
قليلاً ، وكان هو يرى الحياة من خلال نور الله .

وكثيراً ما خَلَّتْ أنه كان يتحدث إلى الجموع كما يتحدث الجبل إلى
السهل .

وفي حديثه كانت ثمة قوة لم يُؤْتها خطباء أثينا ورومه .



مريم المجدلية عن لقاءها عيسى للمرة الأولى

كان ذلك في شهر يونيه عندما شاهدته للمرة الأولى ، وكان يسير في حقل القمح وقد انتحى جانباً ، في حين كنت أخطر بين وصيفاتي .
كان وقع خطاه يخالف وقع خطى غيره من الرجال ، يمضي في بهاء لا يُجاريه أحد . .

فما شاهدت الرجال يُغذّون السير على الأرض مثل ما كان يفعل .
والى اليوم لم أتبين أكان يخبُّ في سيره أم يتمهل .
وأشارت وصيفاتي إليه ، وأخذت كلُّ منهن تهمس في أذن الأخرى في حياء .
أما أنا فقد تلبّثت لحظة ورفعت يدي ألوح له مُحِيّة ، غير أنه لم يُقبل عليّ بوجهه ولم ينظر إليّ . ولقد كرهته فحقدت عليه . وانطويت على نفسي ، وأحسست ببرودة تملكني كأني في مهبّ عاصفة ثلجية ، وأرعدت فرائصي .
وفي تلك الليلة رأيته في أحلامي ، وقيل لي فيما بعد إنني كنت أصرخ في نومي ، وإنني لم أهدأ فوق فراشي .

وما رأيته بعدُ إلا في شهر أغسطس من خلال نافذتي ، وكان يجلس في ظل شجرة السرو تجاه حديقتي ، وكان ساكناً كأنه قُدٌّ من حجر كتمثال من تماثيل أنطاكية أو غيرها من مدن الشمال .

وجاءت جاريتي المصرية لتقول لي : لقد ظهر هذا الرجل هنا مرة ثانية . ها هوذا يجلس هناك تجاه حديقتك .



فتطلعتُ إليه واضطربت نفسي في أعماقها . . . كان جميلا .
كان ذا جسد فريد ، ولقد خيل إليّ أن بين أجزاء جسمه عشقا متبادلا .
وهنا ارتديت ثوبا من الحرير الدمشقي وتركت بيتي أقصدُ قصده .
تُرى أكانت وحدتي التي دفعتني إليه أم ريحه العطرة التي جذبتني نحوه ؟
أكان نهمٌ في عيني إلى الحُسن ، أم كان جماله هو الذي خطف بريق
عيني ؟

لست أدري من هذا شيئا إلى وقتي هذا .
لقد سرتُ نحوه في ثيابي بشذاها العطر ونعلي الذهبية هدية القائد
الروماني . . . وعندما أدركته قلت : عم صباحا .
قال : « عمي صباحا يا مريم » .

ونظر إليّ يفحصني بعين ثاقبة تنفذ من الحجب لم أعرفها لرجل قبله .
وفجأة خلّطني عارية أمامه فأطرقت حياء ، مع أنه لم يزد على قوله : « عمي
صباحا يا مريم » .

فقلتُ له : هلا أتيتَ إلى داري ؟

فقال : « أوكست حقا في دارك ؟ »

وما دريتُ ما كان يرمي إليه عندها ، ولكني دريتُه الآن .

وقلت : هلا شاركتني خبزي ونبيذي ؟

فقال : « نعم يا مريم ، ولكن ليس الآن » .

ليس الآن . ليس الآن . هكذا قال .

كان صوت البحر يهدرُ في هاتين الكلمتين . . . وكذلك صوت الريح
والشجر . وعندما قالهما لي تحدّثت الحياة إلى الممات .

فلا إخالك يا صديقي تجهل أنني كنت في عداد الأموات ، إذ كنت امرأة قد
طلّقتُ روحها . كنت أحيًا بمنأى عن هذه الذات التي تراها الآن . كنت رهن
إشارة كل رجل غير أنه ما تملكني رجل . وكانوا يدعونني الساقطة ، وينادونني
بالمرأة التي قد استحوذ عليها شياطين سبعة . . كنت ملعونة وكنت محسودة .
ولكن ما كادت عينا فجره تلتقيان بعيني حتى توارت نجوم ليلي وأصبحتُ
مريم . . مريم فحسب . امرأة قد انفصلت عن الأرض التي عاشت عليها لتجد
نفسها في أفق جديد .

وثانيةً قلت له : تعال إلي داري فشاركني الخبز والخبز .

فقال : « لم تطلبين إليّ أن أكون ضيفك ؟ »

وقلت ، وكأن كل ما في جسدي من تراب وما يلبسه من روح يدعوهُ إليّ :
لقد ضرعتُ إليك أن تلمّ بداري .

وهنا نظر تجاهي ، ينعكس إليّ نور في عينيه كنور النهار في رائحته وقال :

« ما أكثر مُحبّيك ، ولكنك لن تجدي غيري لك حبيبًا .

غيري من الرجال يحبّون أنفسهم في وصليكَ ، أما أنا فأحبك لنفسك .

غيري من الرجال يرون فيك جمالا سيذبل قبل أن تذبل سنوهم ، أما أنا
فأرى فيك جمالا لن يذبل ولن يبيد .

ولسوف يتطلع هذا الجمال حين تبلغين خريفك إلى نفسه في المرأة في غير
ما خوف ولا وجل . . وفي غير ما هلع ولا أسى .

أنا وحدي أحب فيك ما لا يراه سواي .

ثم أضاف في صوت خفيض :

« ارحلي الآن ؛ فإن كانت شجرة السرو هذه شجرتك ، ولا تريدني لي أن
أجلس في ظلها ، فسأمضي إلى سبيلي . »

فاستصرخته وقلت : تعال إلى داري أيها السيد ، فعندي بخور سوف
أحرقه ليشيع في الدار أريجاً ، وعندني حوض ماء من فضة سوف أهيته لغسل
قدميك . أنت غريب ، ولكنك فينا غير غريب . إني أهيب بك أن تلم
بداري .

وهنا انتصب قائماً وخفض بصره يتطلع إليّ مثلما تتطلع الفصول إلى
الحقول وابتسم ثم ثنى يقول :

« إن الرجال جميعاً يعشقون فيك أنفسهم ، أما أنا فأعشق فيك
نفسك . »

ومضى وابتعد .

وما عرفنا غيره يخطو مثل خطوه في سيره .

تُرى أكانت نسمة انبعثت من حديقتي ولت صوب المشرق ؟

أم كانت ريحاً هوجاء تهز الأشياء جميعاً من أصولها ؟

لست أدري .

شيئاً واحداً أدريه : في ذلك اليوم انطوت بغروب عينيه نار الحقد الكمين في
نفسي ، وصرتُ امرأة ، وصرتُ مريم . . . مريم المجدلية .

فيلمون الصيدلاني اليوناني عن عيسى شيخ النطاسيين

عاش الناصري بين قومه شيخاً للنطاسيين .

ولم يكن غيره يعرف الكثير الذي وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها . وكم من مرضى برثوا على يديه من أمراض استعصت على الإغريق والمصريين . ولقد قالوا : إنه كان يُحيي الموتى ، وسواء أصبح هذا أم لم يصبح فهو سرّ إعجازه ، فلا يُعزى أجلّ الأعمال إلا إلى مَنْ قدّم جليلها .

ويقال فيما يقال إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين ، وإن الكهنة في تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام . وقد يكون ما أوتي عيسى من علم حول هذا مردّه إلى الآلهة لا إلى هؤلاء الكهنة . فلقد عرف عيسى في لحظة قصيرة ما ظل أجيالا متلاحقة غير معروف للناس . وكذلك كان «أبوللو» يمسح بيده على القلب الفارغ فيُنطقه بالحكمة .

ما أكثر ما تفتّحت أبواب السماء لأهل طيبة وأهل صور . ولكن ما أكثر ما تفتّحت أبوابُ كانت موصدة أمام هذا الرجل . فلطالما نفذ إلى هيكل الروح - أعني الجسد - فتعرّف تلك الأرواح الشريرة التي تجتمع على هدّ كياننا وتعويق نموّها ، كما تعرّف الأرواح الخيرة التي تنسج كياننا .

وأكاد أظن أنه بقوة الدّفع والمقاومة كان يَشْفِي المرضى ، لكن على نحو لم يُخبر خُبْرُهُ فلاسفتنا ، فلقد كان يباغت الحمّى بلمساته النديّة كالثلج فترتدّ مؤلّية .

ولقد كان يباغت أعضاء الجسم المتصلبة بتلك الأناة وهذه الرزانة اللتين
عُرِّفتا عنه فتتقاد له مستسلمة إلى بُرء وعافية .

وكان يتحسّسُ ماء الحياة حين يفيض مَعِينُهُ في غضون لحاء الشجر الذابل .

ذلك شيء كان إليه ، يتميزه بأنامله ولا علم لي به .

وكان يتبيّنُ جوهراً الحديد قد علاه خَبَثُ الصدا فيزيلُ عن متن السيف خبثه
ويُعيد إليه لألاءه . . .

كان هذا إليه وحده . . .

وإخال أحيانا أنه كان لا يغيبُ عن سمعه ديبُ الألم في جسم كل حيّ
تُشرق عليه الشمس . كان عندئذ يُقبله من عشرته نافخاً فيه من روحه ، لا بما
أوتي من علم فحسب ، وإنما كان يُهديه إلى موقع القوة من نفسه لينهض فيبلغ
العافية .

وهو طبيباً لم يُشغَل بنفسه كثيراً ، وإنما شغلته أرضه بدينها وشؤون الحكم فيها .

وإني على هذا لشديد الأسف ، فما أولانا بادئ ذي بدء أن نحرص على
سلامة الأبدان . غير أننا نرى هؤلاء السوريين - حين ينزل بهم المرض - أكثر
شُغْلاً بالجدل منهم بطلب الدواء .

وإنه لما يدعو إلى الأسي حقا أن يُؤثرَ أعظمُ نطاسيئهم أن يكون مجرد
خطيبٍ في ساحة السوق !



سمعان الذي يقال له بطرس عندما دُعي هو وأخوه ليتبعوا عيسى

على شاطئ بحيرة الجليل رأيت عيسى مولاي ومعلمي ، وكان ذلك للمرة الأولى .

وكان إلى جانبي أخي أندراوس نطرح شباكنا في الماء والموج شديد عال ،
فما انطوت شباكنا إلا على القليل من السمك ، وإن قلبينا لمثقلان هما .

وعلى حين بغتة طلع علينا عيسى وكأنه قد استوى في مكانه لساعته على
صورته وهيئته ، فما وقعت عليه العيون وهو يقصد قصدنا . وهتف باسمينا
وقال : « اتبعاني أهدكما إلى الخليج الذي يزخر بأسماكه » .

وما كدت أرنو إلى محيائه حتى أفلتت الشبكة من بين يدي واشتعل قلبي
وَجَدًا حين عرفته .

والتفت إليه أخي أندراوس يقول : ليس من خليج على هذه الشيطان إلا
ونحن به عالمان . وإننا فوق ذلك لنعلم أن يوماً كيومنا عاصفًا تلوذ فيه الأسماك
بأغوار لا تبلغها شباكنا .

ويجيبه عيسى : « فلتتبعاني إلى شاطئ البحر الأعظم وسأخذكما صائدين
لبني الإنسان ، ولن تفرغ لكما شبكة أبدًا » .

فتركنا القارب والشباك ومضينا في إثره .

ورأيتني منقاداً إليه في قوة لا أتبينها كانت تلزم ظلّه . وسرت قريباً منه وقد
انبهرت مني الأنفاس وامتلاً القلب عجباً . وكان أخي أندراوس يسير وراءنا
مدهولاً في حيرة .

وبينا كنا نسير على الرمال تماكنت نفسي وقلت له : سيدي ، إني وأخي سنتبع خطاك ، أينما توجهتَ فسنمضي معك . وإذا رأيت أن تلم بنا في دارنا هذه الليلة ، فستكون تلك الزيارة لنا نعمة وبركة . إن دارنا ليست فسيحة وليست عالية البنيان ، ولن تحمل مائدتنا إلا طعام الفقراء ، لكنك ما إن تحلّ بكوخنا حتى يستحيل في أعيننا قصراً ، وإذا شاركتنا خبزنا فسيغبطنا أمراء الدنيا على وجودنا بين يديك .

وقال عيسى : «إذن ، سأكون ضيفكم الليلة» .

وامتلاً قلبي فرحاً ، وسرنا وراءه في صمت إلى أن بلغنا دارنا وحين وقفنا على عتبة الباب قال عيسى : «سلام على هذه الدار ، وسلام على ساكنيها» .

ثم دخل البيت ونحن في إثره .

ومثلت زوجتي وأمها وابنتي بين يديه ، مرحبات به في إجلال ، وركعن أمامه وقبلن طرف كفه ، وقد انعقدت ألسنتهن دهشة حين رأين المختار الحبيب وقد حلّ بنا ضيفاً ، فقد سبق لهن أن شاهدنه عند نهر الأردن عندما نادى به يوحنا المعمدان أمام الناس .

وفي الحال بدأت زوجي وأمها تعدّان طعام العشاء .

وكان أخي أندراوس رجلاً خجولاً ، غير أن إيمانه بعيسى كان أعمق من إيماني .

أما ابنتي التي لم تتجاوز الثانية عشرة حينذاك فقد وقفت تجاهه ممسكة بثوبه كأنها تخشى أن يفارقنا ويعود إلى ظلام الليل ، فتشبّثت به تشبّث الحمل الضال براعيه بعد أن عاد إليه .

وعندئذ جلسنا إلى المائدة ومدّ يده إلى الخبز يكسره ، وصبّ النبيذ والتفت

إلينا قائلاً: «هيا يا صاحبي»، أكرماني بمشاركتكما لي هذا الطعام كما أكرمنا الله بمنحنا إياه».

فاه بتلك الكلمات قبل أن يمدّ يده إلى كسرة، فقد شاء أن يأخذ بسنة قديمة تجعل من الضيف المكرم ربّالدار.

وعندما جلسنا معه حول المائدة، نحلنا أننا جلوس في وليمة الملك الأكبر. أما ابنتي پترونيلا، وكانت بعد غصة غريرة، فأنشأت تحدّق في وجهه وتتبع حركات يديه، ورأيت سحابة من دموع تغشي عينيها.

وعندما ترك المائدة تبعناه وجلسنا حوله في خميلة العنب.

وتحدّث إلينا فأصغينا، وإن القلوب التي بين الضلوع لتخفق خفق الطير. وتكلّم عن البعث، وعن أبواب السماء وهي تفتّح، وعن الملائكة تهبط حاملة على كفيها السلام والبهجة الجميلة للبشر أجمعين، وعن ملائكة تصعد إلى العرش حاملة أشواق الناس وحنينهم إلى العليّ الكبير.

ثم نظر في عينيّ وقد نفذت نظراته إلى أعماق قلبي وقال:

«لقد اخترتُك واخترتُ أخاك معك، ولا منأى لكما عن ملاحقتي. لقد عملتما وكدحتما، وما أثقل ما تحمّلتما. والآن سأمنحكما الراحة، فلتحملا عني نيري، ولتتعلمما عني ففي قلبي يكمن السلام، ولتستشعرنّ روحاكما الراحة والطمأنينة في العودة إلى موطنكما الأزلي».

وعندما قال قوله هذا، نهضتُ أنا وأخي واقفين أمامه وقلت له: أيها المعلم، سنمضي معك إلى أطراف الأرض. وسنحمل معك حملنا راضين مطمئنين وإن كان كالجبل ثقلاً، وإذا سقطنا على جانب الطريق فسنعلم أننا سقطنا على طريق السماء... وسنكون من الراضين.

وتكلم أخي أندراوس وقال: أيها المعلم، سنكون خيوطاً في يديك وعلى
نؤلك، فلتنسجنا ثوباً إن أردت، فسنكون قطعة في ثوب العليّ المتعال.

ورفعت زوجتي وجهها إليه، وكانت الدموع تنهمر على وجنتيها،
وتكلمت في فرح قائلة: بورك فيك يا مَنْ أتيت باسم الله، وبورك في بطن
حَمَلِك وثدي أرضعتك.

بينما جلست ابنتي التي لم تتجاوز من العمر اثني عشر عاماً عند قدميه
واستقرت قريباً منه. أما أم زوجتي فلم تنبس ببنت شفة، وظلّت تبكي في
صمت وسكون حتى ابتلّ دثارها بالدموع. وعند ذلك تقدّم منها عيسى ورفع
وجهها إلى وجهه وقال لها:

«أنت أم لهؤلاء جميعاً. وما بكيتِ إلا من فرط سعادتك، ولسوف أستبقي
دموعك هذه في ذكري».

وهنا كان القمر الأزليّ قد تجاوز الأفق، وتطلع عيسى إليه لحظة ثم التفت
إلينا قائلاً:

«لقد امتدّ بنا الوقت. فلتأووا إلى فراشكم، وعسى أن يرعى الله نومكم.
وسأبقى أنا هنا في هذه الخميلة إلى الفجر. لقد أقيتُ شباكي اليوم وصدّنتُ
رجلين وإني بذلك لراض، والآن عموا مساء».

وهنا قالت أم زوجتي: ولكننا قد أعددنا لك فراشك في الدار، وإني أضرع
إليك أن تدخل وتستريح.

فأجابها قائلاً:

«لعمري إني أطلب الراحة حقاً ولكن لا في ظل سقف، فلتدعوني أرقد
هذه الليلة في ظلّة تنسجها الأعناب والنجوم».

وأسرعتُ لتأتي بالحشيّة والوسائد والأغطية ، فابتسم وقال :

«انظري . إني سأرقد في فراشٍ قد هيّئ مرتين» .

وعندئذ تركناه ودخلنا الدار ، وكانت ابنتي آخر من دخل ، وظلّت نظراتها تتبعه حتى أغلقتُ الباب .

هكذا كانت معرفتي الأولى بمولاي ومعلمي .

ومع أن ذلك جرى منذ سنين ، إلا أنه ما زال ماثلاً كأنه حَدَث اليوم .



قيافا الكاهن الأكبر

إذا تحدّثنا عن ذلك الرجل عيسى وعن موته فعلينا ألا نهمل حقيقتين بارزتين: التوراة وما تُلزمنابه من رعاية لها، وهذه المملكة وواجب رومه في الدفاع عنها.

ولنتظر إذن: لقد كان هذا الرجل من المناوئين لنا ولرومه معاً.

فلقد بلبل عقول الدّهماء من الناس، وساقهم سوق الساحر ليكونوا حرباً علينا وعلى قيصر.

وكان موالياً - رجالهم ونساؤهم - ما إن يستمعوا إليه يخطبهم في الأسواق حتى ينقلبون عصاة ناقمين. ولقد أبق نفرٌ منهم، ولاذوا بالفيافي والقفار مذّ طلع علينا هذا الرجل.

وجديرٌ بنا ألا ننسى أن التوراة هي مرجعنا الذي نعود إليه، ومعقلنا الذي نلوذ به فنقوى.

وما كان لرجل أن يَغلبنا على أمرنا ونحن نملك ما نضربُ به على يديه.

وما كان لرجل أن يسلبنا بيت المقدس ما بقيت لنا أسوارها العتيقة بأحجارها قائمة كما خلّفها داوود.

وإذا قُدِّرَ لما بَدَّرَ إبراهيم أن ينبتَ حقاً ويؤتي ثماره، كان حتماً أن تبقى هذه التربة نقية طاهرة.

فلقد كان ذلك الرجل عيسى من المدّسّين المفسدين، ولقد رددنا كيده في

نحره بما نملك من ضمير واع لا يدنسه شك ، ولسوف نردّ كيد هؤلاء جميعاً في
نحورهم ، أولئك الذين ييغون بشريعة موسى ذلة ومهانة ، ويحاولون أن
يذكروا تراثنا المقدس بسوء .

ولقد علمنا نحن وبيلاطس البنطي ما في نفس هذا الرجل من شر ، وكان
من الحكمة أن نجعل له نهاية .

ولسوف أعمل على أن ينتهي أتباعه إلى ما انتهى إليه ، وعلى أن يؤول رجعُ
كلماته إلى سكون .

إذا أردنا لليهودية أن تعيش فحتمٌ أن تعنوا لها جباه المعارضين حتى تلصق
بالرغام .

الآلا عشتُ حتى أرى اليهودية تموت ، إذن لغفرت رأسي الأشهب بالرماد
كما فعل النبي صمويل ، ولتزعجت عني رداء هارون ، ووضعت على جسدي
خَشِنَ الرداء حتى يدركني الموت إلى الأبد .



يونا زوج قهرمان هيرودس عن الأطفال

ما بنى عيسى بامرأة قط ، على حين عرفته النساء صديقاً . عرفهن كما يجب
أن يعرفن : صُحبة مستطابة .

كما أحبّ الأطفال هذا الحب الذي هم به جديرون ، عن إيمان وإدراك .
وكنتَ تتمثل في بريق عينيه أباً وأخاً وابناً .

ولربما أمسك بالطفل يضعه على ركبتيه وهو يقول : من مثل هذا تستمدون
قوتكم وحریتكم ، وبمثل هذا يكون لكم ملكوت الروح .

ولقد حدثوا أن عيسى لم يلق بالآل لشريعة موسى ، وأنه كان يغلو في العفو
عن ساقطات اورشليم وغيرها من البلدان المجاورة .

ولقد كنت أنا حينذاك محسوبة من بين الساقطات ، إذ كنت أهوى رجلاً لم
يكن لي زوجاً . وكان صدوقياً لا يؤمن بالسبت ولا باليوم الآخر .

وذاًت يوم اقتحم الصدوقيون^(١) عليّ منزلي وكان عشيقني إلى جواربي ،
فأمسكوا بي واحتجزوني في حين أفلت عشيقني تاركاً إياي .

وعندها قادوني إلى ساحة السوق حيث كان عيسى يعلم الناس ، وكان
مُناهم أن يقفوا بي بين يديه ليستبينوا ما عنده ولينصبوا لي شركاً .

(١) الصدوقيون أتباع صادوق [القرن ٣ ق.م.] وهو يهودي أسس بدعة الصدوقيين
المذكورين في الإنجيل الذين كانوا ينكرون قيامة الأموات .

لكن عيسى ما دانني بشيء ، بل أنحى بالخزبي على هؤلاء الذين سعوا
ليلصقوا الخزي بي ، وعنفهم .

ثم طلب إليّ أن أمضي لسبيلي .

وما فتئتُ فأكهتُ الوجود أن غدت حلوة المذاق في فمي وكانت من قبلُ لا
مذاق لها ، وسرى أريج الزهور الفواح في شمّي وكانت قبلُ بلا أريج ،
وعشتُ امرأة قد طرحت عنها ذكرياتها الشائنة وتحرّرت منها . . . لن تنكس
الرأس نحجلا بعد يومها هذا .



رفقة عروس قانا

حدث هذا قبل أن يذيع اسمه بين الناس .
وكنت في حديقة أمي أشذب شجيرات الورد حين وقف بإزاء بابنا يقول :
«أنا عطشان . هل لك أن تعطيني من بتركم جرعة ماء؟»
فجريتُ وأتيتُ بالوعاء الفضيّ ثم ملأته ماء وقطرتُ فيه بضع قطرات من
قنينة الياسمين .

فعبّ الماء عبّاً ، وبدأ رضيّ النفس .

ثم أخذ يُنعم النظر في عيني وهو يقول .

«لسوف تحلّ بك بركتي» .

وما إن قال ما قال حتى أحسستُ كأن نفحة من ريح تسري في جسدي ،
وإذا أنا غير هيّابة ولا خجلة .

فقلت له : أيها المعلم لقد خطبني رجل من قانا ، مدينة الجليل . وسيبني بي
في اليوم الرابع من الأسبوع القادم ، فهلاً حضرت عرسي ، فيشرف زواجنا
بوجودك؟

فأجاب قائلاً : «سأحضرُ ، بُنيّتي» .

وأذكر قوله حين قال «بُنيّتي» ، وهو لم يكن إلا فتى في ريعان الشباب ،
وكنت عندها أخطو إلى العشرين .



ثم مضى ينحدر في سبيله ، ولبثت في موقفي عند باب الحديقة حتى
استدعتني أمي إلى الدار .

وفي اليوم الرابع من الأسبوع التالي حملوني إلى بيت العريس وأخذوا
يزقونني .

وحضر عيسى في صُحبة أمه وأخيه يعقوب .

وجلسوا إلى مائدة العرس بين ضيوفنا على حين أخذت صاحباتي من
الفتيات ينشدن أناشيد العرس لسليمان الملك . وأكل عيسى من طعامنا وشرب
من نبيذنا وكان يهش لي ولغيري .

وقد ألقى بالآ إلى الأغاني كلها ، أغنية ذلك الحبيب وهو يحمل محبوبته
إلى خيمته ، وأغنية هذا الحدّث حارس الكرمة الذي أحبّ ابنة صاحب الكرمة
ثم صحبها إلى دار أمه ، وأغنية هذا الأمير الذي التقى بفتاة تتسول فحملها إلى
مملكته وتوجّ رأسها بتاج أسلافه . وكان يبدو كأنه يصيخ السمع أيضاً إلى أغاني
أخرى غيرها لم أستطع سماعها .

وعند غروب الشمس جاء والد العريس إلى أم عيسى وقال لها هامساً : لقد
نقدَ مالدينا من نبيذ ، وما انتهى اليوم بعد . .

وسمع عيسى ما يهمس به فقال :

«إن الساقى ليذري أنه لا يزال ثمة نبيذ» .

وكان ما قال حقاً . فلقد بقي الضيوف ما بقوا والنبيذ الطيب موفور لمن
يشرب .

وسرعان ما أخذ عيسى يتحدّث إلينا ، فتحدّث عن عجائب الأرض

والسمااء؁ وزهراء السمااء الاءى تُشرق حين يءن الليل؁ وعن زهراء الأرض الاءى آأالق مؤنعةً عنءما آآآفي النءوم في وضح النهار.

وأءذ يقصّ علينا القصص ويضرب لنا الأمآال؁ وإن لآوته لآحراً يلفآنا إليه؁ وكاننا بين يءي رؤى أنسآنا الكاس والطاس.

وفيما أنا أسآمع إليه آيل إليّ كأآي في بلد ناء لا عهد لي به.

وبعد قليل آقءم ضيف إلى والء عريسي يقول له : لقد آبست عنا آير ما عنءك من نبيل آآى نهاية الآفل . وهذا ما لا يفعله آيرك من المضيفين!

واعآقء المآآفلون أن عيسى قء آآى بمعآزة؁ وأنهم سوف ينالون مزيداً من نبيل في آآام العرس أطيب من ذاك الاءى كان في أوله .

ولقد آآآ أنا أيضاً أن عيسى هو الاءى أجرى النبيل؁ آير أنني لم أءش؁ فمن قبل أسآمعت إلى المعآزآ في نبرات آوته .

وفي الآقّ لقد ظلّ آوته بعدُ عالقاً بآلبي إلى أن وضيعآ أول وليء لي .

ولا آزال آآى الآن؁ وإلى يومنا هذا؁ كلمة ضيفنا آءيآ قريننا والقرى المآيطة .

وإنك لآمع إليهم يقولون : كانت آمر عيسى النابعة من روجه أطيب نبيل وأعآقه .



حكيم العجم في دمشق عن الآلهة في الغابر والحاضر

لا أملك أن أنبئ عما يخبئه الغيب لهذا الرجل ، كما لا أملك أن أحدث عما سوف ينال تلاميذه .

فليست البذرة التي تُجَنَّبُ التفاحة في جوفها إلا حديقة لا يراها البصر . وقد تقع هذه البذرة على صخرة صماء فإذا هي لا غناء فيها .

غير أنني على هذا أقول : إن الإله الأزلي لإسرائيل شديد البطش لا تأخذه رحمة .

وجدير ببني إسرائيل أن يطلبوا إلهًا غيره : إلهًا رحيمًا غفورًا يتجاوز عن سيئاتهم رافة بهم ، إلهًا يتنزل مع شعاع الشمس ويسري على الطريق إلى غاياتهم ، ولا يجلس إلى الأبد في مجلس القصاص يزن سيئاتهم ويقيس خطاياهم .

على بني إسرائيل أن يعبدوا ربًا لا يحمل حقدًا ولا ضغنا ، ولا يذكر من نقائصهم إلا التزر اليسير ، ولا يقتص لنفسه منهم ولا من حقدتهم وذرائعهم .

وما أشبه الناس في سوريه بغيرهم في أنحاء العالم . فكل منهم يُنعم النظر في مرآة فكره وعقله حيث يقع على معبوده ، فهو يصور أربابه وفق هواه ، ويعبد هذا الذي ينعكس عليه تصوّره . وفي الحق إن الإنسان يناجي شوقه المكنون رجاء أن يفيض فيُشبع جُماع رغباته .

وليس بعد النفس في الإنسان غورًا ، والنفس غورًا يناجي ذاته ، إذ ليس هناك صوت ثان يحدث ، ولا آذان أخرى تسمع .

ونحن في فارس نُبصر وجوهنا في قرص الشمس ، وتترأى أجسادنا

راقصة على السنة النار التي نُشعلها على مذابح الهياكل . وهكذا نرى أن إله عيسى لن يكون غريباً على أتباع المسيح ، ولسوف يحقق لهم ما يشتهون .

وقد ألقى أرباب مصر عن كواهلهم ما يحملون من أثقال ، وفرّوا إلى صحراء النوبة ليعيشوا أحراراً بين هؤلاء الذين لما يشحذوا نفوسهم بالمعرفة .

وشمسُ آلهة اليونان والرومان في سبيلها الآن إلى الغروب ، إذ كانوا شديدي الشبه بالإنسان حتى تعذّر عليهم مجاراته في نشوته .

أما الحرجات التي نشأ فيها سحرهم الفياض فقد اجتثتها معاول الأثينيين والإسكندريين من الفلاسفة .

كما دُكّت معابدهم دكّاً في هذه البلاد على أيدي المشرّعين في بيروت والأحداث من نُسّاك أنطاكية .

ولم يعد غير العجائز من النساء والمتهدّمين من الرجال يسعون إلى معابد أسلافهم ، ولا يرجع ببصره إلى أول الطريق إلا المتعب المكدود حين يبلغ آخره .

لكن عيسى ، هذا الرجل الناصري قد تحدّث عن ربّ هو من الجلال والإحاطة بحيث يشبه الناس كلهم ، وسع علمه كل شيء فتعالى عن العقاب ، وفاض بالحب لمخلوقاته فتجاوز عن آثامهم .

ولسوف يجتاز إله الناصري عتبات الدور ليلقى أبناء الأرض ويجلس إلى مُصنّلياتهم . ولسوف يكون لهم بركة تنضم عليها الجدران ، ولسوف يكون لهم نوراً ينير لهم الطريق .

ولكني أدينُ بما دان به زردشت ، أدين بالشمس في السماء وبالنار على وجه الأرض ، وبالنور الذي في الصدور ، وإني بذلك لراض ، لا أطلب غير هذا ديناً .

داوود : واحد من الأتباع عن عيسى الواقعي

لم أكن أفقه ما تدلّ عليه عظاته ولا ما تشير إليه أمثاله ، إلى أن فارقنا ولم نعد نراه بيننا .

أجل ، فلقد عشتُ لا أعلم علمها إلى أن رأيت كلماته في صورها الحيّة رأيت العين ، وقد تشكّلت بأشكال الأجسام التي يزخر بها موكب الحياة . مع الأيام .

ولتسمع إليّ أحدثك حديثي هذا : بينما كنت جالسا ذات ليلة في منزلي أنعم النظر مفكراً مستذكراً كلماته وأفعاله علنيّ أجمعها في كتاب ، إذ اقتحم عليّ بيتي لصوص ثلاثة .

ولقد شغلني الفكر فيما أنا آخذ فيه عن أن ألقاهم بسيف ، أو عن أن أقول لهم : ماذا جاء بكم إلى هنا ؟ مع علمي أنهم ما جاءوا إلا ليسرقوا متاعي .

وبقيت على ما أنا عليه أكتب ذكرياتي عن هاديّ ومعلمي . وعندما خرج اللصوص عني ذكرت قوله : « نخل اللص وقد جاء يسرق منك ثوبك ، يسرق معه ثوبك الآخر » .

ولقد فهمت .

وإذ جلست أدون كلماته ، لم يكن إنسان في الوجود يستطيع أن يحول بيني وبين ما أفعل ، ولو كان جاء ليمضي بما أملك جميعاً .

وما أنا براغبٍ عن حماية نفسي ونفيسي ، ولكنني أعلم أين يقع كنزي الأعظم .

لوقا عن المنافقين والمرائين

كان عيسى يَحْتَقِرُ المنافقين المرائين وَيُزْرِي بِهِمْ . وكان إذا غضب
فكالعاصفة نكالاً بهم ونقمة ، وكان صوته الرعد في آذانهم رُعباً وخوفاً .
ولقد دبّروا لقتله خشيةً منه وفزعاً .

وكما لا تسعى الفئران إلا في خبايا الأرض ، سعوا ليزلزلوا الأرض من
تحت قدميه ، ولكنهم لم ينالوه بكيد .

وكان هو يسخر منهم ، إذ كان يعرف حق المعرفة أن الله سوف يردّ عنه
أذاهم ، وأنه لن يقع فيما يحيكون .

وكان ينظر في مرآة يده ، فيرى الفاتر الضعيف والأعرج الثقيل الخُطى ، كما يرى
هؤلاء الذين يترنحون إعياء فيقعون على منعطفات الطريق ولما يبلغوا مقصدهم .

وكان يأسى لهؤلاء جميعاً . وكم تمنى لو أقالهم من عشرتهم واستوى بهم
إلى مقامه ، وكم تمنى لو حمل عنهم أثقالهم ، بل كم تمنى أن يجعل من
ضعفهم قوة بقوته .

وما دان الكاذب أو اللص أو القاتل كل الإدانة ، بل كان يصبّ جام غضبه
كله على المنافقين بما تُخفي وجوههم وما تستر أيديهم .

وما أكثر ما أنعمتُ النظر مفكراً في ذلك القلب الذي وسع جميع من خفوا
إليه من المفازات والمتاهات يلتمسون الأمن في محرابه ، وإن ظل موصداً
مختوماً عليه دون هؤلاء المنافقين وحدهم .

وفي يوم من الأيام بينا كنا معه خالين في حديقة الرُّمان نأخذ قسطًا من الراحة قلت له : أيها المعلّم ، إنك تمنح الآثم عفوك ولا تبخل عليه بعزائك ، وكذلك أنت مع الضعفاء والعاجزين ، لا تستثني إلا المنافقين وحدهم !

وإذا هو يقول لي :

« لقد أحسنت القول وأصبت الهدف حين دعوت الآثمين ضعافًا عاجزين ، وإني أمنحهم عفوي على وهن أبدانهم وضعف أرواحهم . فما وقعوا فيما وقعوا فيه إلا بأوزار آبائهم التي حملوهم إياها ، أو بأطماع جيرانهم التي أثقلوهم بها .

ولكنني غير متجاوز عن المنافقين ، إذ هم أنفسهم يُثقلون بنيرهم كاهل المخلص الأمين ، ومن سلّمت طويته وسلّس قياده .

وهؤلاء الضعفاء الذين تدعونهم آثمين ، مثلهم مثل صغار الطير التي لا ريش لها فتسقط من أعشاشها . أما المنافقون فهم الجوارح تقبع على الصخور لتنقض على فريستها .

الضعفاء قوم قد ضلّوا طريقهم في المتاهات ، على حين لم يضلّ المنافقون طريقهم فهم يعرفون أين يسيرون ، لكنهم على هذا عابثون هازلون على الرمال وفي مهبّ الريح .

وإني لهذا لا ألقاهم ولا أفسح لهم رحابي .»

وعلى هذا النحو مضى المعلّم يتكلّم ، وما فهمت عنه يومها ، ولكنني اليوم جدّ فاهم .

ولقد قدّر للمنافقين بعدها أن يسطوا أيديهم عليه وأن يدينوه . وكانوا فيما

فعلوا يخالون أنهم على الحق ، فلقد اتخذوا من شرعة موسى برهانهم عليه
وحجّتهم ضده .

وكان هؤلاء الذين يعبثون بالشرائع مع مطلع كل شمس ، ويعبثون بها
أخرى مع كل مغيب ، هم الذين قادوه إلى حتفه .



متى موعظة الجبل

في يوم من أيام الحصاد دعانا عيسى ودعا معنا غيرنا من صحابه إلى التلال .
وكانت الأرض عبقةً بشذاها ، أشبه شيء بابنة ملك في حفل عرسها ، قد
تزيّنت بكلّ ما تملك من حلّيّ وجوهر ، وازدانت السماء وكأنها العروس .
وعندما بلغنا أعالي التلال وقف عيسى ساكنًا في حرجة من أشجار الغار
وقال :

« فلنقرّها هنا ، لا تشغلوا بالكم ودعوه رخيًا ، وسوّوا أوتار قلوبكم لتلقن
عني ، فإن عندي الكثير مما سوف أحدثكم به » .

ثم اضطجع فوق العشب ونحن من حوله تحفّ بنا زهور الصيف وقال :
طوبى لهؤلاء الذين صفت أرواحهم .

وطوبى للذين لا يبيتون أسرى ما يملكون ، لأنهم سوف يضحون أحرارًا .
وطوبى لمن يذكرون أتراحهم ، وفي أتراحهم يرقبون أفراحهم .

وطوبى للذين يتضورون جوعًا ينشدون الحق والجمال ، فسيكون لهم من
جوعهم الخبز الذي يأكلون ، ومن ظمئهم الماء القراح الذي يشربون .

وطوبى لذوي الكرم والحلم ، لهم من كرمهم وحلمهم خير عزاء وسلوى .

وطوبى للذين قد طهرت قلوبهم ، لأنهم لن يكونوا بعيدًا من الله .

وطوبى للرحماء فإن الرحمة ستكون جزاءهم .



وطوبى للدّاعين إلى السّلم ، فإن أرواحهم سوف تسمو فوق الخصومات
وسوف يجعلون من ساحات الخالق جنّات وبساتين .

ثم طوبى للذين يقعون فريسة لغيرهم ، فسوف يُؤْتون خفة الخطو ، وسوف
يُرزقون أجنحة .

ألا فلتفرحوا ولتستبشروا ، فقد وجدتم ملكوت السموات منكم قريباً .
لقد لقي من سبقوكم مَن تغنّوا بهذا الملكوت ما لقوا من اضطهاد وتعذيب ،
ولسوف تلقون أنتم أيضاً هذا الاضطهاد وذلك التعذيب ، وفي هذا ما كان لكم
من فضل وأجر .

أنتم ما على الأرض من ملح ، فإذا ما فقد الملح مذاقه ، فلن يطيب للناس
طعامهم الذي عليه تعيش القلوب .

أنتم النور الذي يضيء به الوجود ، فلا تجعلوا هذا الضوء تحت صاع أو
مكيال ، بل خلّوه يسطع فوق الدُّرى لأولئك الذين يسعون إلى رحاب الله .

ولا تهّموا أني جئتُ لأنسخ شرائع الكتّبة والفرّيسيين ، فإن أيامي بينكم
معدودة وكلماتي مُحصاة . وليس أمامي إلا ساعات كي أحقق شريعة أخرى
وأكشف عن عهد جديد .

ولقد قيل لكم : لا تَقْتُلُوا ، ولكني أقول لكم : لا تغضبوا إلا أن تُدفعوا
إلى غضب .

ولقد عهد إليكم أسلافكم أن تأتوا بعُجولكم وحملائكم وطيركم إلى
الهيكل ، وأن تذبحوها على المذبح لعل رائحة شحومها تنال مشم الآلهة ،
فترضى عنكم وتغفر لكم خطاياكم .

ولكنني أقول لكم : ليتكم تُعطون الله ما كان له فيها منذ الأزل .
وليتكم تُرضون ذلك الذي دون عرشه خلاءً سحيق والفضاء بين ذراعيه .
بل عليكم أن تسعوا إلى إخوانكم تُسالمونهم وتهادنونهم قبل أن تسعوا إلى
الهيكل ، ولتكونوا كرماء راغبين في العطاء ينال منه جيرانكم ، ففي نفوس
أولئك قد شيّد الله هياكل لا تندثر ، وفي قلوبهم أقام مذابح لا تبيد .
ولقد قيل لكم إن العين بالعين والسن بالسن ، ولكنني أقول لكم : لا
تناهضوا الشرّ ، فإن مناهضة الشرّ غذاء له يهيجه ويذكّيه .
الضعاف وحدهم هم الذين يقتصّون لأنفسهم ، والقويّ النفس يعفو
ويصفح ، وإنه لشرف لمن أُوذي أن يصفح .
فالشجرة المثمرة هي وحدها التي نهزّها أو نرميها بالحجارة لنقع على ما
نقتات به .
فلا تُشغّلوا بالغد ، بل ما أحراكم أن تتطلّعوا إلى اليوم ، فحسبُ اليوم ما
يُبيدي لكم من معجزات .
ولا تُشغلك نفسك بالتفكير فيها طويلا وأنت تعطي ، بل فكّر في حاجة
المُعوز ، لأن من يعطي سوف ينال هو نفسه من خالقه ، ولسوف يكون ما
يناله أضعافاً مضاعفة .
ولتعط كل إنسان وفق حاجته ، فالخالق لا يعطي الملح للعطشان ، ولا
الحجر للجوعان ، ولا اللبن للفظيم .
ولا تعط الكلاب ما هو مقدّس ، ولا تضع لأثك في طريق الخنازير لأنك
تكون قد سخّرت منها وأنت تُهدي إليها مثل هذه الهدايا ، وهي على هذا
سوف تسخر من هداياك ، وفي حقدّها ستحرق شوقاً إلى دمارك .

لا تدخروا لأنفسكم كنوزاً هي إلى بلى وفساد ، وقد تكون نهباً للسارقين ،
بل ادخروا كنزاً لا يبلى ولا يسرق ، كنزاً يزداد حسناً مع اختلاف النظرات
إليه .

فحيثما يكن كنزك يكن قلبك أيضاً .

ولقد قيل لكم : أما القاتل فخذوه بحدّ السيف ، وأما اللص فسوقوه إلى
الصليب ، وأما الساقطة فارجموها رجماً . ولكني أقول لكم : إنكم لستم
أبرياء من جريرة القاتل واللص والساقطة ، فإنكم حين تنالونهم في أجسامهم
سوف تُظلم منكم أرواحكم .

وفي الحق ، ليست ثمة جريمة يقتربها الرجل وحده أو المرأة وحدها ،
فالجرائم كلها يقتربها الجميع . وهذا الذي يناله العقاب قد يكون وزره كله أنه
حطم حلقة من حلقات الأغلال التي تُصقّد معاصمكم .

ولربما كان يدفع بما يُعانيه من ألم ثمن ما تستشعرونه من فرح عارض .

* * *

هكذا تكلم عيسى . ولقد كنت أتوق إلى أن أركع بين يديه إعظاماً له ، لكن
الحياء غلبني فلم أستطع أن أتحرك أو أن أنطق بكلمة .

وعندما انتهى تكلمتُ وقلت : بُودّي لو استطعت الصلاة في هذه اللحظة ،
غير أن لساني ثقيل ، فلتعلمني كيف أصلي .

فقال عيسى : « عندما تريد الصلاة ، دع شوقك يُملّ عليك كلماتك ، وإن
شوقي الآن ليُملّي عليّ أن أضرع قائلاً :

رب العالمين ، رب السماوات والأرضين ، تقدّست أسماؤك ،

لتكن مشيئتك فينا كما كانت دائماً .

وارزقنا من خبزك كفاء يومنا .

واغفر لنا برحمتك ، وامنحنا القدرة على أن يعفو بعضنا عن بعض .

واهدنا صراطك ، وامدد لنا يدك في الظلمات .

لك المُلْك ، وبك القوة ، وبك بلوغ القصد» .

* * *

وعندها ساد الغروب وهبط عيسى التلال ، ومضينا كلنا إثره .

وفيما كنت أتبعه كنت أردد تضرعاته وأذكر كل ما قال ، لأنني كنت أعرف أن الكلمات التي تساقطت علينا تساقط البَرَد في ذلك اليوم لا بد أن تستقر وتنعقد قوياً كالبللور ، وأن الأجنحة التي خفقت فوق رؤوسنا لا بد أن تضرب الأرض ضرب السنايك التي قُذت من حديد .



يوحنا بن زبدي عن أسماء عيسى المختلفة

إنكم لترون أن نفرًا منا يدعو عيسى : المسيح ، وأن آخرين يسمونه :
الكلمة ، ونفرًا ثالثًا يقولون له : الناصري ، وغيرهم ينادونه : بابن الإنسان .
وسأجهد جهدي في أن ألقى على هذه الأسماء من النور الذي فاض عليّ
لتبين .

فالمسيح الذي وُجد من قديم الأزمان هو قبس من نور الله حلّ في روح
الإنسان ، وهو نسمة الحياة تحلّ فينا ثم تتخذ لها جسدًا كأجسادنا تسكنه .
هو إرادة الله ومشيبته .

هو الكلمة الأولى التي تودّ لو جرّت في أصواتنا وعاشت في آذاننا ، لعلنا
نعلمها ونتدبرها .

وإن كلمة الله ربنا قد بنت لها بيتًا من لحم وعظم ، واستوت بشرًا مثلي
ومثلك .

فنحن لا نستطيع أن نسمع نشيد الريح إلا أن يأخذ شكلا ، ولا أن نرى ذاتنا
الكبرى وهي بين الضباب .

ما أكثر ما جاء المسيح إلى هذا العالم ، وما أكثر ما طاف بأرض وبلاد .
وفي كل مرة كانوا يخالونه غريبًا ، ويحسبونه ذا جنّة .

على أن رنين صوته لم ينته قط إلى عدم ، فإن ذاكرة الإنسان تحفظ ما لا
يُعنى عقله بحفظه .



هذا هو المسيح العميق النفس البعيد السمو ، الذي يخطو مع الإنسان نحو
الأبدية .

أوكم تسمع عنه على مفترق الطرق بالهند ، وفي بلاد المجوس ، وفوق
رمال مصر؟

وهنا في بلادكم الشمالية كان الشعراء الماضون يتغنّون بيرومئوس سارق
النار من الآلهة ، ذلك الذي كان رغبة للإنسان حُققت وأملا سجين قفص قد
أطلق ، وعن أورفيوس الذي رُزق صوتًا وقيثارة ليؤنس روح الحيوان
والإنسان .

ثم ألم يجثك نبا الملك مثرا وزردشت نبيّ العجم ، هبّا من غفوة الإنسان
الأول ليقفا إلى جانب مهاد أحلامنا؟

وحين نلتقي ، في هيكل الغيب مرة كل ألف سنة ، سوف نصبح نحن
الآخرين أطهاراً .

إذ ذاك سوف يخرج إلينا متجسداً وعندها سوف يستحيل صمتنا
غناء .

ونحن على هذا لا تميل آذاننا دائماً لتُصغي ، وعيوننا لا تلتفت دوماً لتنظر .
لقد وكّد عيسى الناصري ونشأ كما ننشأ . كان إنساناً .

أما المسيح «الكلمة» الذي كان في البداية ، والروح التي تريد لنا أن نعيش
حياة كاملة ، فقد جاء إلى عيسى واتّحد معه .

والروح كانت يد الله الخبيرة ، وعيسى كان القيثارة .

الروح كانت الأنشودة ، وكان عيسى اللّحن الذي ردّها .

وعيسى رجل الناصرة كان مضيف المسيح ولسانه الناطق .
هو الذي كان يسير معنا في الشمس ويدعونا أصدقاءه .
في تلك الأيام لم تكن تلال الجليل وأوديتها تسمع غير صوته ، وكنتُ
وقتها فتياً أقتفي أثره وأتبع خطاه .
كنت أقتفي أثره وأتبع خطاه لأسمع كلمات المسيح من بين شفتي عيسى
الجليلي .

ولعلكم أدركتم الآن لم كان البعض منا يدعوه ابن الإنسان .
وكان هو نفسه يُحب أن يُدعى بهذا الاسم ، لأنه عرف جوع الإنسان
وعطشه ، وشاهد الإنسان وهو يجد في إثر ذاته الكبرى .
كان ابن الإنسان هو المسيح ، الرحيم ، الذي أراد أن يكون لنا جميعاً .
كان هو عيسى الناصري الذي قاد إخوانه إلى المسيح ، وإلى الكلمة التي
كانت كلمة الله منذ الأزل .

وفي قلبي يقيم عيسى الجليلي ، الإنسان الذي هو خير البشر ، والشاعر
الذي يجعل منا جميعاً شعراء ، والروح التي تطرق أبوابنا علناً نستيقظ وننهض
لنلقى الحق مجرداً سافراً ، غير متعثر ولا مكدود .



كاهن حدث من كفرناحوم عن عيسى المشعوذ

كان ساحراً لحماً ودماً ، وكان عرافاً .

كان رجلاً يخدع البسطاء بالتعاونيد والرقي ، ويتلاعب بأقوال الأنبياء
ومقدسات الآباء .

أجل . بل كان يطلب إلى الموتى أن يكونوا شهوده ، وإلى القبور الصامته أن
تكون نُذره وسنده .

وكان يسعى إلى نساء أورشليم ونساء القرى المجاورة يُمَكِّرُ بهنّ مكر
العنكبوت بالذباب ، وكُنَّ يقعن بين خيوطه . فالنساء ضعيفات الباهن
أهواء ، يجذبهنّ الرجل الذي يُؤنس عواطفهنّ المكبوتة بكلمات رقيقة معسولة .
ولولا هؤلاء النسوة المتخاذلات الخائرات العزم اللاتي تملكتهنّ روحه
الشريرة ما وعت اسمه ذاكرة .

ثم من هم الرجال الذين انقادوا له ؟

كانوا من تلك الجماعات المطحونة المُمتَهنة والمغلوبة على أمرها ، وهم
في جهلهم وخوفهم لم يكونوا ليجرؤوا على أن يُشوروا على ساداتهم
الشرعيين .

ولكن عندما وعدهم عيسى الدرجات الرفيعة في مملكة السراب التي
صوّرها لهم لأنوا لخرافته كما يلين الطين لصانع الفخار . ألا تعلم أن العبد في
أحلامه يودّ لو أصبح سيّداً ، وأن الضعيف يودّ لو أصبح ليثاً كاسراً ؟

كان الجليليّ دجّالاً ومخادعاً ، يتجاوز عن خطايا المخطئين جميعاً علّه يسمعهم مهلّلين مُبجّلين يُطرونه بأفواههم المدنّسة ، وكان يُغذّي قلوب اليائسين الكسيرة ليجمع منهم أذاناً تصغي إلى صوته وحاشية تأتمر بأمره .

وكان لا يدخل في السبت مع مَنْ يدخلون حتى يظفر بتأييد الخارجين على الناموس ، وكان يُسفه رأي كبار الكهّان حتى يلفت أنظار مجمع اليهود ، فيما خالف لمع اسمه وذاع صيته .

وكثيراً ما قلت : إني أبغض هذا الرجل .

نعم ، لشدّ ما أبغضته بُغضاً يربو على بُغضي الرومان الذين يحكمون بلادي .

كما أبغضت مجيئه من الناصرة - مباءة الوثنيين - التي لعنها أنبياؤنا ، والتي لن يظهر فيها خير أبداً .



ثرى من سببط لاوي كان في جوار الناصرة عن عيسى النجار الماهر

كان نجاراً ماهراً ، وكان ما يصنعه من الأبواب لا يقوى اللصوص على فتحه أبداً .

وكانت النوافذ التي يصنعها مهيأة لاستقبال الريح من المشرق والمغرب .
ومن خشب الأرز كان يصنع خزائن مصقولة متينة ، ومحاريث ومذاريح متينة لا تستعصي على الأيدي .

وكان ينحت مقارئ الكتب المقدسة في معابدنا . كان ينحتها من شجر التوت الذهبي . وعلى جانب الدعامين اللتين تحتضنان الكتاب المقدس كان يحفر أجنحة مبسوطة ، وتحت الدعامة كان يحفر رؤوس ثيران وحمام ، وغزلاً بعينين نجلاوين .

كل هذا كان يصنعه على طريقة الكلدانيين واليونانيين .

ولكن ثمة شيئاً آخر من حذقه لم يكن كلدانياً أو يونانياً .

هاك بيتي مثلاً ، فقد شاركت في بنائه أيد كثيرة منذ ثلاثين عاماً . وكنت أطلب له البنائين والنجارين من مدن الجليل كلها ، وكان لكل منهم مهارته وفنه في البناء ، وكنت سعيداً راضياً بكل ما صنعوا .

أما الآن فتعال وانظر هذين البابين ، وتلك النافذة التي صنعها عيسى الناصري ، فهي في رسوخها واستقرارها تُزري بما عداها في الدار .

ألا ترى معي أن هذين البابين يختلفان الاختلاف كله عن الأبواب الأخرى؟

وهذه النافذة التي تطلّ على المشرق ، أليست هي الأخرى مختلفة عن غيرها من النوافذ؟

كلُّ أبوابي ونوافذي تعنو وتذلّ لمرّ السنين إلا تلك التي صنعها هو ، فهي وحدها تقف راسخة أمام قوى الطبيعة .

انظر إلى تلك الروافد المتقاطعة كيف ثبّتها ، وتلك المسامير كيف نفذت من جانب من جانبي اللوح ثم استقرت وثبتت أقوى ما تكون على الجانب الآخر .

أما الشيء الذي فاق في غرابته ما عداه ، فهو أن ذلك النجار نفسه الذي استحق أجر رجلين ولم يأخذ غير أجر رجل واحد ، قد نُوديَ به نبياً في بني إسرائيل .

لو أنني كنت أدري حينذاك أن ذلك الفتى ذا المنشار والمسحاة إنما هو نبيّ لرحت أتوسّل إليه أن يتكلم لا أن يعمل ، وعندها كنت أسخو في الأجر جزاء ما ينطق به من كلمات .

ولا يزال عندي إلى اليوم رجال كثيرون يعملون في داري وحقلي . ولكن كيف أميّز بين ذاك الذي يبسط يده على أدواته وبين ذاك الذي تنبسط يد الله فوق يده؟

أجل كيف لي أن أتبيّن يد الله ؟



راع في جنوب لبنان مثل من الأمثال

كان الصيف يؤذن بالرحيل عندما التقى هو وثلاثة رجال آخرين للمرة الأولى على ذلك الطريق.

وكانت الشمس تؤذن بمغيب فوق ، وكان وقوفه هناك على حافة المرعى .
وكنت أنفخ في مزماري وقطيعي يرعى من حولي . وعندما وقف ، نهضتُ
واتجهت نحوه ووقفت بين يديه فسألني :

« أين قبر إيليا ؟ أليس هو قريباً من هذا المكان ؟ » .

فأجبت قائلاً : إنه هناك أيها المعلم تحت تلك الكومة الضخمة من الحجارة .
والى يومنا هذا لا يزال كل عابر سبيل يحمل حجراً ليضعه فوق الكومة .

فشكرني وتنحى عني ، ومضى أصحابه في إثره .

وبعد ثلاثة أيام قال لي غمائليل ، وكان هو الآخر راعياً :

إن الرجل الذي مرّ بنا نبيّ من يهوذا .

ولكني لم أصدقه . ومع ذلك ظللت أفكر في هذا الرجل أشهراً عدة .

وعندما حلّ الربيع مرّ عيسى ثانية بهذا المرعى غير أنه كان وحده .

ولم أكن أنفخ في مزماري ذلك اليوم إذ كنت قد فقدت إحدى نعجاتي ،
وكنت أحسّ همّاً ، وكان قلبي كسيراً يختلج في صدري ، فسعيت إليه ووقفت
صامتاً بين يديه .

فنظر إليّ وقال : « أنت لا تنفخ في مزمارك اليوم . لم هذا الحزن المائل في عينيك؟ »

فقلت : نعجة من نعجاتي فقدتها ، ولقد بحثت عنها في كل مكان دون جدوى ، ولست أدري ما أنا فاعل .

فصمت برهة ، ثم ابتسم لي وقال : « تلبث ها هنا قليلاً وسأجدها لك » .
ومضى عني حتى وارته التلال .

وبعد ساعة عاد ونعجتني إلى جانبه غير بعيدة منه . وعندما مثل أمامي كانت النعجة تتطلع إلى وجهه كما أتطلع .
وهنا ضمنت النعجة إليّ في سرور .

ووضع يده على كتفي وقال : « منذ اليوم ستحب هذه النعجة أكثر مما تحب نعجة أخرى في قطيعك لأنك افتقدتها ، ولأنك الآن وجدتتها » .

ومرة أخرى ضمنت النعجة إليّ في غبطة وانسراح . ودنت مني النعجة وأنا صامت لا أتكلم .

لكني عندما رفعت رأسي لأشكر عيسى كان قد ولى بعيداً . وما ملكتُ شجاعة تدفعني لأتبعه .



يوحنا المعمدان يتحدث إلى تلميذ من تلاميذه

لن ألزم الصمت في هذه البقعة الدنسة على حين يجلجل صوت عيسى في ميدان القتال ، فما بالي أرضى أن أكون معقود اللسان عيياً وهو حر طليق .
ولقد قالوا لي إن الأفاعي تلتفُّ حول خاصرتة .

غير أنني أجيبهم أن الأفاعي سوف تزيد من بأسه ، وسوف يدوسها بنعله .
أنا لست إلا الرعد يصحبُ برقه . وإذا كنت قد سبقته إلى الكلام ، فقد كانت الكلمة كلمته وكان الهدف هدفه .

لقد أمسكوا بي دون إنذار ، وقد يلقون القبض عليه هو الآخر .
لكنهم لن يفعلوا قبل أن ينطق كلمته كاملة .
وسيقهرهم . . .

ستمرَّ عجلته فوقهم وستطوهم سنابك خيله .
ويكون له النصر .

وسيمضون قُدماً بالرماح والسيوف ، ولكنه سيلقاهم بقوة روحه . ستسيل دماؤه فوق الثرى ، ولكنهم هم أنفسهم سوف يستشعرون الجراح والألم نظير ما اقترفوا ، وسوف يغرقون في دموعهم حتى يتطهروا من ذنوبهم .

وستزحف ألويتهم صوب مدنه بمجانيق من حديد ، ولكنهم في طريقهم إليه سيغرقون في نهر الأردن .

وستُمعن أسواره وأبراجه في العلو ، وستسطع دروع جنوده تحت الشمس أشدَّ لمعاناً مما كانت .

هم يقولون إنني وإياه عُصبة مُتُحالفين ، وإن مقصدنا هو أن نستنهض
الناس للعصيان والثورة على مملكة يهوذا .

وإني لأجيب ، وليتني أملك مكان الكلمات شواظاً من نار: إذا كانوا
يعدّون هذا الجحيم المملوء بالظلم والشرور مملكة فلتُهوِ إذن مملكتهم إلى
الحضيض ، ولينزل بها الخراب حتى تصبح أثراً بعد عين . ولتذهب إلى حيث
ذهبت سدوم وعمورة ، وليخرج هذا الجنس من رحمة الله ، ولتتحول هذه
الأرض إلى رماد .

أجل . فخلف أسوار هذا السجن كنتُ في الحق نصيراً لعيسى الناصري ،
وسوف يقود جيوشي ، فرساناً ومُشاة ، وما أنا بقَمين أن أحلُّ رباطَ نعليه وإن
كنتُ من القادة .

امض إليه وردّد كلماتي هذي واسأله باسمي أن يمنحني الطمانينة
والبركة .

لن يطول مكثي ها هنا . ففي الليل بين اليقظة واليقظة أحسُّ بأقدام متمهّلة
تخطو خُطى رتيبة تطأ هذا الجسد . وعندما أصبح أتسمّع ، أحسُّ المطر يساقط
فوق لحدي .

امض إلى عيسى وقل له : إن يوحنا الخضروني ، الذي امتلأت روحه
بالأطياف ثم عادت خالية ، يصلّي من أجله ؛ وحفّار القبور يقف إلى جواره ،
والسيّاف يمدّ يده ليتسلّم أجره .



يوسف الرامي عن أهداف عيسى الأوليّة

لعلك راغب في أن تتعرف الهدف الأول لعيسى ، وكم وددت لو أخبرتك خبره ، ولكن أتى لإنسان أن يتحسس بأصابعه الروح التي تدب في الكرمة المباركة ، أو أن يُبصر العُصارة التي تجري بالغذاء في فروعها .

ولقد طعمتُ من أعنابها وذقتُ باكورة عصارتها في إبانها وهي تسيل من المعصرة ، وأنا على ذلك عاجز عن أن أحيطك بكل شيء علماً .

وكل ما أستطيع أن أقصّه عليك هو ما أعرفه عنه : ما عاش معلّمنا وحيبنا غير فصول ثلاثة من فصول النبوة : إنشاده القدسيّ وكأنه الربيع ، وتجليه القدسيّ وكأنه الصيف ، وعذابه الأليم وكأنه الخريف ، وألف سنة دام كل فصل من هذه الفصول .

* * *

أما ربيعُه وهو إنشاده القدسيّ فقد أمضاه في الجليل ، وهناك جمع حوله مُريديه ، وعلى شواطئ البحيرة الزرقاء أنشأ يتحدث عن الخالق وعن الخلاص وعن الحرية .

والى جوار بحيرة الجليل تجرّدنا من ذواتنا لنعرف سبيلنا إلى الله . ولكن يا للعجب . . . كم كان ضئيلاً هذا القليل الذي فقدناه إلى جوار هذا الذي تناهى إلينا . . .

فهنالك نفذ تسييح الملائكة إلى آذاننا يُغرّينا بأن نخلي الأرض الجرداء المقفرة ونقصد جنة تتوق إليها القلوب .

وتحدّث عن الحقول المخضرة والمراعي المِعشبة وعن منحدرات لبنان حيث
زهرات السّوسن البيض لا تبالي القوافل وهي تضرب في الوادي التّرب ،
وتحدّث عن الورود البرية التي تشرق بنور الشمس وتهبّ النسيم عبيراً وهو
يمرّ بها .

ولقد كان يقول : «إن هذا السّوسن وتلك الورود البرية لا ثحيا غير يوم ،
لكنه يوم من الخلود تقضيه حرّة» .

وفي أمسية بينما نحن جلوس إلى جانب الجدول إذ سمعناه يقول :

«تطلّعوا إلى هذا المجرى واستمعوا إلى خريره وهو دائب السّعي إلى
البحر . إنه مع هذا السّعي المتصل يُفصح خريره عما يُخفي ويكنّ ظهراً في إثر
ظهر . ألا ليتكم تسعون إلى ربكم سعي هذا الجدول إلى البحر» .

* * *

وبعدها ، حلّ صيفه وهو تجلّيه القدسيّ ، وأظّلنا حينذاك من أشهر حبه
حزيران ، فما تكلم عن شيء غير الرجل الآخر : الجار ، ورفيق الطريق ،
ورفاقنا في ملاعب الصّبا .

تحدث عن المسافر الراحل من المشرق إلى مصر ، وعن الحارث وهو يروح
إلى بيته وبين يديه ثيرانه ، وعن الضيف الطاريء تقوده شرارات الفسق إلى
دارنا .

إذ ذاك كان يقول : «جارك هو ذاتك الخفية غدت مرثية ، وفي مياهاك
الساكنة ينعكس وجهه . ولو أنعمت النظر لرأيت فيه محياك أنت .

وإذا أصخت السمع حين يُجنّك الليل فلسوف تسمعه يتكلم ، ولسوف تجد
في كلماته خفقات قلبك .

فلتكن له كما تحب أن يكون هو لك

هذه هي سبيلي وسنتي ، ولسوف أقولها لكم كما سأقولها لأبائكم .
ولسوف يقولها أبناؤكم لأبنائهم من بعدهم إلى أن تقوم الساعة ويفنى الخلق» .
وتحدث إلينا يوماً فقال :

«لا تنشد ذاتك فيك وحدك ، بل انشدها في أفعال غيرك من الناس ، فإن
هؤلاء - وإن جهلت - يعيشون معك طيلة حياتك .

وليس ثمة جرم يقترفونه إلا كانت أيديكم في أيديهم .

ولن يقعوا إلا حين تقعون ، كما لن ينهضوا إلا حين تنهضون .

وإن طريقهم إلى بيت الله لهو طريقكم ، وهم حين يضربون في التيه ،
فكذلك أنتم تضربون .

وما مثلكم ومثلُ جيرانك إلا مثلُ حبتين قد بُدرتا في حقل ، تنبتان معاً
وتتمايلان معاً في مهب الريح ، ولن يدعي أحدهما الحقل دون أخيه ؛ فإن
البذرة في نمائها لا تطلب شيئاً بله نشوتها هي .

إني اليوم معكم وغداً سوف أقصد إلى الغرب ، ولكني أقول قبل أن أمضي
لسبيلي : جارك هو ذاتك الخفية غدت مرئية ، فبالحب اطلبه عساك أن تهتدي
إلى نفسك ، فإنكم عندما تبلغون هذا تبلغون أن تكونوا إخوة لي» .

* * *

ثم كان خريفه وهو عذابه الأليم ، فتحدث إلينا عن الحرية ، وكأنه يحدثنا
في الجليل أيام ربيعته المترع بإنشاده القدسي ، غير أن كلماته اليوم كانت
تخاطب منا أغوار النفوس .

فتحدث عن أوراق الأشجار ، لا نسمع نشيدها إلا حين تذررها الرياح .

وتحدث عن الإنسان ، وكأنه الكأس ملاًها ملك اليوم الموكل به ليروي
منها غلته ملك آخر . وسواء أملاى كانت الكأس أم فارغة فستظل بللورية
شفافة على مائدة العلي المتعال .

ثم قال: «أنتم الكأس وأنتم الشراب . اشربوا أنفسكم حتى الثمالة أو اذكروني أرو غلَّتكم» .

و حين كنا في طريقنا إلى الجنوب قال لنا : « لسوف يهوي بيت المقدس الذي يبدو شامخاً فوق المرتفعات في جهنوم ، ذلك الوادي السحيق ، وعلى أطلاله ستروني وحيداً .

ولسوف ينهار الهيكل تراباً ، ومن حول رواقه سوف تسمعون صراخ الأرامل وعويل اليتامى ، ويفرّ الناس عجلين ، ينكرُ الأخ أخاه لشدة ما غشيهم جميعاً من الفزع .

غير أنه إذا لقي منكم الرجلُ الرجلَ هنالك ، وهمسا باسم ما ووكيا وجهيهما شطر المغرب فسوف يرياني ، ولسوف تتحدّرُ كلماتي إلى آذانهما» .
وما إن أدركنا تل «بيت عنيا» حتى قال :

« فلنقصد بيت المقدس فإنها تترقّب مجيئنا . ولسوف أدخل من البوابة ممتطياً فلواً ، وسأقول لذلك الحشد : ما أكثر الذين يريدون أن يطوقوني بالأغلال ، وما أكثر الذين يريدون أن يطفئوا شُعْلي . ولكنكم في مماتي ستجدون الحياة ، وستكونون طلقاء .

إنهم سينشدون الأنفاس التي تضطرب بين القلب والعقل كما يُحلق العصفور بين الحقل وعشه ، ولكن ها هي ذي أنفاسي قد أفلّتت ، ولن يكون لهم الأمر عليّ .

إن السياج الذي حاطني به الله لا يتداعى ، وتلك الأرض التي باركها الله لن تُنتهك .
وعند ما يبزغ الفجر سوف تتوجّج الشمس رأسي ، وسوف أمضي وإياكم لنستقبل يومنا ، وسوف يكون هذا اليوم طويلاً لا يشهد العالم له غروباً .
وإن الكتّبة والفريسيين ليقولون : إن الأرض تتحرق ظماً إلى دمي .

ولسوف يروقُ لي أن أروي ظمأ الأرض بدمي ، ولسوف تُنبت قطرات دمي
أشجار البلوط والقيقب ، ولسوف تحمل ريح الشرق بذورها إلى بلاد أخرى .

ثم مضى يقول :

« إن أمة اليهود تريد ملكًا ينهض إلى جيوش رومه ، غير أنني لن أكون
ملكها ، فإن تاج صهيون قد هُيئَ لجبين دون جيبني ، وخاتم سليمان أضيق من
أن يتسع لإصبعي .

ألا ترون إلى يدي ، ثم ألا ترون أنها أجلُّ من أن تقبضَ على صولجان ،
وأقوى من أن تستلَّ سيفًا من السيوف الشائعة المتداولة ؟

ما كان لي أن أسوق الناس من سوريه حربًا على أولئك من رومه اولكنكم
بكلماتي سوف تُوظفون تلك المدينة ، وسوف تناجي روعي فجرها الثاني ،
ولسوف تكون كلماتي جيشًا لا ترونه بخيله وعتاده لا يحمل أسنَّة ولا حرابًا ،
وبه سوف أقهر كهنة بيت المقدس كما سوف أغلب القياصرة .

لن أتربع على عرش تبوأ عليه عبيدٌ ليحكموا غيرهم من العبيد ، كما لن
أكون حربًا على أبناء إيطاليا .

ولكني سأكون عاصفة في سمائهم وأغنية في أرواحهم .

وسيدكرونني .

وسيدعونني عيسى المسيح .

* * *

قال عيسى هذه الكلمات خلف أسوار بيت المقدس من قبل أن يلجَ سورَ
المدينة ، وكان كلماته قد حُفرت بإزميل .

نثنائيل عيسى لم يكن وادعاً

يقولون فيما يقولون : إن عيسى الناصري كان متواضعاً وادعاً . ويقولون :
إنه على ما كان يتصف به من العدل والإنصاف كان مستضعفاً ، وكثيراً ما كان
يُرتج عليه بين يدي كل جبار عنيد ، وكان إذا مثَّلَ بين يدي ذوي السلطان
كالحمَل الوادع بين السباع .

لكنني على هذا أقول : إن عيسى أوتي سلطاناً على الناس ، وإنه كان على
علم بما يملك من قوة ، أعلن عنها بين تلال الجليل وفي مدن يهوذا وفينيقية .
أترى الرجل الذليل المهين يقول : إني أنا الحياة ، أنا هو الطريق والحق
والحياة؟

أترى الرجل المتواضع الوادع يقول : إني أنا روح الرب ، وفي حلت روح الرب؟
أترى الرجل الذي لا علم له بما أوتي من قوة يقول : إن مَنْ لا إيمان له بي ،
لا إيمان له بالحياة ولا بالأبدية ؟

أترى الرجل الذي هو في شك من غده يقول : ستمضي دنياكم وسوف تنتهي
إلى الفناء ، بل سوف تصير رماداً تذروه الرياح قبل أن تبلغ كلماتي مداها ؟
ثم أتراه كان في ريبة من أمره حين قال لمن سعوا إلى بلبكته بساقطة : مَنْ كان
منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر ؟

أتراه كان من الذين يخشون السلطان حينما طرد الصيارفة من ساحة
الهيكل ، وكان الكهنة قد أباحوا لهم ذلك ؟

أترأه كان مقصود الجناحين حين صاح : إن مملكتي دونها ممالك لكم في الأرض ؟

أترأه كان يبغى الأمن والسلامة في ظل الكلمات حين قال وكرّر : اهدموا هذا الهيكل أشيّد له لكم ثانية في أيام ثلاثة ؟

أترأه كان جباناً ذاك الذي لوّح بيده في وجه الحكام وهو يجيبهم : كذّابون ، أدنياء ، أنجاس ، لؤماء ؟

وهل يدعى متواضعاً وادعاً ذلك الذي تبلغ به الجرأة والإقدام أن يقول ما قاله عيسى لمن يهيمنون على أرض يهوذا ؟

كلا ثم كلا ، فالنسر لا يبني عشه بين الصفصاف المتهدّل ، والليث لا يتخذ عرينه بين السرخس المتطامن .

إنني لأحسُّ بالغيثان وبأحشائي تضطرب حين أسمع إلى هؤلاء الذين في قلوبهم خور ، يسمّون عيسى متواضعاً ويدعونهم وادعاً ، يسوّغون بذلك خواء قلوبهم وضعف نفوسهم . وكذا المسحوقون إذ ينشدون طمأنة نفوسهم بالانتماء إلى صحبة المسيح حين يحدثون عنه فيجعلونه كالذودة تزحف متألقة في جوارهم .

أجل ، إن قلبي ليضيق بأمثال هؤلاء الرجال .

إنما أبشّر بالمسيح القانص المقتدر ، والروح الصلدة التي لا تُقهر .



سَابَا الأَنْطَاكِي شَاوَل الطَّرْسُوسِي

اليوم استمعتُ إلى شاول الطرسوسي يبشّر بالمسيح بين اليهود في هذه المدينة .
إنه الآن يدعو نفسه بولس ، وإنه مُرسَلٌ إلى الأُمَمِيّين من غير اليهود .
ولقد عرفته في صباي ، وكان في تلك الأيام حرباً على أصحاب الناصري .
وما يغيب عن ذاكرتي رضاه عن أصحابه وهم يرمون ذلك الشاب المتهلّل
الوجه اسطفانوس .

ولقد كان بولس هذا رجلاً غريباً حقاً ، لم تكن نفسه نفسَ إنسان حرّ ،
وكان في الحين بعد الحين يبدو كأنه من حيوان الغاب أثخنه الصائدون بالجراح
وهو يلتمس كهفاً يحتجب فيه بألامه عن دنياه .

وما تحدّث عن عيسى وما ردّد كلمة من كلماته ، ولكنه بشّر بالمسيح المنتظر
الذي أنبأ به الأنبياء من قبل .

ومع أنه هو نفسه من اليهود ، لكنه يتحدّث إلى أتباعه من اليهود بيونانية
متعذّرة ، ولا يُحسن انتقاء ألفاظه .

غير أنه مع هذا ينعمُ بقوة خفية ، وهو في محضره يبدو مؤيداً ممّن يلتفون
حوله ، والذين كان يدعوهم حيناً إلى الإيمان بما لم يكن متأكداً بعد من صوابه .

ونحن الذين عرفنا عيسى وسمعنا عظامه ، نقول إنه كان يعلم الناس كيف يحطمون أصفاد العبودية عليهم يخلصون من ريقه الأمس .

غير أن بولس كان يقُدُّ الأصفادَ لرجال الغد ، وكان يطرقها بمطرقته على السندان باسم نبيِّ لم يتأتَّ له أن يعرفه .

وعلى حين كان الناصريُّ يريد لنا أن نحيا ساعاتنا بين العاطفة والنشوة .
كان الطرسوسي يحب لنا أن نُلقي بالآلما في الكتب القديمة من شرائع وقوانين .

ولقد نفخ عيسى من روحه فيمن هم أموات انقطعت أنفاسهم .

وعندما أخذ إلى نفسي مع الليل أو من به وأدرك مقاصده .

وعندما كان يجلس إلى المائدة كان يروي ما يبعث السعادة في نفوس المدعوين ، وكان بمرحه يُشهي اللحم إلى الأكلين والنيذ إلى الشارين .

أما بولس فكان يعدُّ خبزنا وشرابنا دواء .

والآن فلتدعني أولي وجهي شطر الطريق الآخر .



من سألومي إلى صديقة لها أمنية لم تتحقق

كان كأشجار الحور اللامعة المغمورة بضوء الشمس ،
وكالبحيرة بين التلال الموحشة تتلأأ صفحتها تحت أشعتها ،
وكالثلج يُجلل قمم الجبال .
أبيض ، ناصعاً تحت نور الشمس .
أجل ، كان أقرب إلى هذه كلها شيئاً .
ولقد أحبيته ،

على أنني كنت أهاب محضره .
وما قويتُ على النهوض لثقل ما أحمل من حب ،
كي أرتمي على قدميه أطوقهما بذراعي .
وكم تمنيتُ أن أقول له :

«في لحظة من لحظات الهوى ، سفكتُ دمَ صاحبك
فهلأ غفرت لي خطيئتي ؟

وهلأ خلّصت شبابي ، شفقة به ورحمة من ضلّالته .
علّه يهتدي بهديك ؟

وإني لأعلم أنه كان يغفر لي رقصي

لأظفر بهذه الرأس الطاهرة - رأس صاحبه - .
وإني لعلى يقين بأنه كان سيستوحي من فعلتي بعض تعاليمه .
فليس ثمة وهدة مقفرة إلا أقام عليها معبراً ،
ولا مفازة عطشى إلا جازها .

* * *

أجل ، لقد كان كشجر الحور ،
وكالبحيرات بين التلال ،
وكالثلج يكسو جبال لبنان .
ولقد وددت لو لطفت حرارة شفتي بين طيات ثوبه ،
غير أنه كان بعيداً عني ،
وكنت مستخزية .
وكانت أمي تحجزني وراءها ، كلما حفزني الرغبة في أن أمضي إثره .
وكان كلما مرّ بي انفطر قلبي لبهاء جماله ،
لكن أمي كانت تتجهّم له في ازدراء ،
وتردني - عجلة بي - عن أن أختلس النظر إليه عبر النافذة .
لأمضي إلى مخدعي ، صائحة :
وهل يكون هذا غير آكل جراد آخر جاء من الصحراء ؟
وهل هو إلا واحد من هؤلاء المستهزئين المرتدين ،



المروّجين للفتنة ، يسعى ليسلبنا التاج والصولجان ،
ويُغري بنا ما في موطنه اللّعين من ثعالب وبنات أوى ،
تَعوي في ردهاتنا وتتربّع على عرشنا؟
اغربي عني بوجهك فلا أراك منذ اليوم ،
وارتقي يوماً تسقط فيه رأسه ، ولكن في غير صفحتك .
قالت لي أمي هذا كله ،
غير أن قلبي لم يعِ كلماتها .
فلقد أحببته سرّاً .
وكنت في منامي أحسّ وهجّ النار يحيط بي .
وها هو ذا قد رحل عنا ،
وقد ذهبتُ بذهابه بضعةً من نفسي .
لعلها كانت صبوةُ الشباب لم تشأ أن تتلبّثَ هنا ،
مُدّ ولى مذبحاً إله الشباب . . .



راحيل إحدى تلميذاته عن عيسى الرؤيا والإنسان

ما أكثر ما انتابني الحيرة! هل كان عيسى إنساناً من الأناسي من لحم ودم، أو هو طيف يهوم في الرأس لا شكل له، أو خيال يتراءى للإنسان فيما يتراءى له.

وما أكثر ما بدا لي حلمًا من تلك الأحلام تراها كثرة لا تُحصى من الرجال والنساء، وهي مستغرقة في سبات عميق لا يعدل عمقه سبات، أو هو سحر رخي ساج لا يقاس به سحر.

ويخيل إليّ وقد أخذ كل منا يقصّ رؤياه على صاحبه، أننا قد جعلنا نعدّ هذا الحلم حقيقة وقعت لنا دون ريب، نهبه جسداً نابعاً من خيالنا، ونُضفي عليه صوتاً يمليه شوقنا إليه، فإذا جوهره من جوهرنا.

ولكنه حقاً لم يكن حلمًا، فلقد عرفناه على مرّ أعوام ثلاثة، وتطلّعنا إليه بعيون مبصرة والشمس في راحة النهار.

ومست أيدينا يديه، ومضينا في إثره من مكان إلى مكان، واستمعنا إلى عظامه وشهدنا أفعاله.

أترانا كنا فكرة تنشأ مزيداً من أفكار، أم حلمًا في مملكة الأحلام؟

وكم تبدو جلائل الأحداث لنا غريبة عما نألف في حياتنا اليومية، على حين تجتمع طبيعتها وطبيعتنا على أصول ممتدة، ولكنها على هذا تطالعنا مباغته، وتمرّ بنا حين تمرّ مباغته، وأجلّها الحق أعوام وأجيال.

كان عيسى الناصري نفسه الحدث الأعظم . . . فلقد كان هذا الرجل الذي عرفنا أباه وأمه وإخوته هو نفسه معجزة وقعت في مدينة اليهودية .

أجل ، فلو أن معجزاته كلها جُمعت بعضها فوق بعض عند موقع قدميه ما بلغت كعبيه .

ولن يحو مرّ السنين وجريان الأيام والليالي ذكره من نفوسنا . . .

فلقد كان مع الليل كالجبل المشتعل ناراً ، غير أنه كان يبدو من وراء التلال نوراً خافتاً . . .

وكان كالعاصفة في السماء ، غير أنه كان في غلس الصبح همساً وهممة .

وكان كالسّيل المنحدر من المرتفعات إلى الوديان يطوّح بكل شيء أمامه ، كما كان يحكي بسمات الأطفال رقة وليناً .

وكم تطلعتُ إلى حلول الربيع من كل عام في هذا الوادي الذي ينزله . كنت أرقب ظهور شجيرات السّوسن وزهور بخور مريم ، غير أن أشجاني كانت تورقني مع كل عام ، لأن البهجة التي كنت أتوق إليها مع حلول الربيع لن تتحقق .

غير أن عيسى ما كاد يتصل بأيامي حتى كان ربيعي الذي أنشده ، وتمنيت معه لو تتابعت السنون . فلقد ملأ عليّ قلبي غبطة ، وكما ينمو البنفسج نموتُ حيةً خجلة في نور إقباله .

واليوم لن يستطيع قلبُ الفصول أن يحوّ جماله من ديانا هذه ، فصولٌ تجري في عوالم ليست بعد لنا ملكاً .

كلا ، فما كان عيسى طيفاً زائفاً ، ولا هو خيال شاعر ، بل كان رجلاً مثلك ومثلي في مرأى العين وملء الحس وملء السّمع ، ثم هو بعد هذا لا يجتمع معنا على شبه .

كان رجلا يحفلُ بالفرح ، وعلى طريق الفرحة التقى بأتراح الناس .

ولقد استشفّ وهو في قمة أحزانه أفراح الناس جميعا ، ورأى ما لا نستطيع أن نراه من رؤى ، وسمع ما لا ندرك أن نسمعه ، وكان - إذا تكلم - كأنما يتحدث إلى جموع غفيرة لا يراها . وما أكثر ما تحدث إلينا وهو يخاطب منا سلالات لم تولد بعد .

وكثيراً ما كان عيسى يبدو وحيداً . كان يعيش بيننا ولكنه لم يكن معنا . وهو وإن كان يخطو فوق أديم الأرض إلا أنه ينتمي إلى عالم السماء . ونحن لا نستطيع أن نحظى بلقائه في أرض وحدته إلا خلال وحدتنا .

ولقد أحبنا حباً ملؤه الحنان . وكان قلبه يفيض بالحب فيض معصرة الكروم ، وكان لي ولك أن نتقدم منها بكؤوسنا في أيدينا نغترف ونشرب .

لكنّ ثمة شيئاً لم أستطع إذ ذاك فهمه في عيسى . كان يميل إلى مداعبة سامعيه وإدخال السرور على نفوسهم ، يضمّن حديثه إليهم ألواناً من الطرائف ، ويتلاعب بالألفاظ ، ويضحك من كل قلبه . يفعل هذا كله حتى حين ترى عينيه ساهمتين شاخصتين ، وحين تحسّ الحزن في نبرات صوته . غير أنني قد فهمت الآن .

فكثيراً ما كنت إخال الأرض أشبه شيء بامرأة مثقلةً بجنينها البكر ، وكان عيسى حين وُلد هذا الطفل البكر ، وكان حين مات أول إنسان يموت .

أو لم تبدُ لك الأرض قد همدت في ذلك اليوم العابس . . . يوم الجمعة ؟ ثم ألم تجد أن السماوات قد هاجت بينها ثورة صاحبة !

ثم ألم تحسّ حين غاب وجهه عن أعيننا كأننا لم نعد شيئاً . . . ذكريات في الأفق البهيم ؟

كلوبا من بيت خيرون عن الشرائع والأنبياء

كان عيسى إذا تحدّث ألقته إليه الدنيا كلها بسمعها وأمسكت عن الكلام .
إذ لم تكن كلماته لأذاننا وحدثنا ، بل كانت لكل عنصر خلق الله منه الأرض .
فكان حديثه إلى البحر - أصلنا الجليل العظيم الذي منه كانت النشأة الأولى -
والى الجبل - الأخ الأكبر - بقمته التي هي عهد .
كما تحدّث إلى الملائكة فيما وراء البحار والجبال ، الذين استودعناهم
أحلامنا قبل أن تُنضج الشمس ما في بِنيتنا من طين .
وها هو ذا حديثه ما انفكّ هاجعاً في صدورنا ، وكأنه أغنية من أغاني الحب
بين الذكرى والنسيان ، وقد يحترق أحيانا فيصاعد إلى ذاكرتنا .
ولقد كان حديثه سهلاً جذلاً ، وجرس صوته أشبه بالماء القراح قد أصاب
أرضاً عطشى .
ومرة رفع يده إلى السماء فبدأت أصابعه وكأنها أغصان الجميز ، ثم أخذ
يقول في صوت جهوري :
« لقد تحدّث إليكم الأنبياء من قبل ، ولقد امتلأت آذانكم بحديثهم ، غير
أني أقول لكم . . . ابعدوا عن أسماعكم كل ما حدّثوكم به » .
وما كانت كلمات عيسى « ولكني أقول لكم » حين قالها تصدر عن رجل
من بني البشر ولا من عالمنا ، وما أحرأها أن تكون لكوكبة من الملائكة تعرج في
سماة اليهودية .

وكان يقتبس المرة بعد المرة من الشرائع ، وينقل عن الأنبياء ، غير أنه كان يعقب بقوله : « ولكني أقول لكم . . . » .

آيةٌ كلمات من نار ، وأيةٌ أمواج قذفت بها بحار الغيب إلى سواحل عقولنا كانت هذه العبارة : « ولكني أقول لكم . . . » !

وأيةٌ نجوم تلك التي تنفذ إلى ظلام النفوس ! وأيةٌ نفوسٍ مُسَهَّدة تلك التي ترقب الفجرًا

وما أعوز مَنْ يقصّ عليك شيئًا من حديث عيسى إلى طلاوة هذا الحديث ، أو إلى صدى منه !

ولن تجد عندي هذا الحديث ولا صداه . .

ولتغفر لي أن بدأت معك حديثًا لا أستطيع أن أختمه ، وما أظن الختام على شفتي بعد .

فهو لا يزال أغنية حبٍّ تردّد الرياح صداها .



نعمان الجداريني عن موت اسطفانوس

تفرّق حواريوه، ولكنه قبل أن يختطفه الموت خلف لهم الألم إرثاً
وأوصاهم به . فلقد تخطفهم الناس وطاردهم كما تُطارَد الغزلان والشعالب
في المروج ، ولا تزال كنانات القانصين مفعمةً بالسهام .

ولكنهم كانوا حين يُجمعون ويُساقون إلى الموت يستقبلونه فرحين بوجوه
متألّقة تألق وجه العروس في حفل زفافها . فلقد خلف لهم مع ميراث الألم
الفرح والسرور .

وكان لي صديق من بلاد الشمال اسمه اسطفانوس . ولقد ساقوه إلى
السوق ورجموه حين جهر بأن المسيح ابن الله .

وحينما وقع اسطفانوس على الأرض بسط ذراعيه يريد أن يحكي سيده في
ماته ، وكانت ذراعاها مبسوطتين وكأنهما جناحان يريد أن يحلق بهما . وعندما
خبا آخر بصيص في عينيه رأيت بعينيّ بسمّة على شفتيه . بسمّة تحكي تلك
النفحة التي تهبّ قبل انصرام الشتاء ، ضمناً وبُشري بمقدم الربيع .

وأني لي أن أصفها !

لقد خيل إليّ أن اسطفانوس كان يقول :

« إذا قُدّر لي أن أمضي إلى عالم آخر ، وإذا قُدّر لرجال آخرين أن يسوقوني
إلى السوق ليرجموني فلن أراني عندها إلا جاهراً باسمه ، لهذا الحق الذي رأيت
فيه ، ولهذا الحق نفسه الذي أستشعره الآن . »

ولقد رأيت أن هناك رجلاً يقف إلى جواربي، وكان ينظر فرحاً إلى اسطفانوس وهو يُرجم.

وكان اسم هذا الرجل شاول الطرسوسي، ولقد كان هو الذي سَلَّم اسطفانوس إلى الكهنة والرومان والغوغاء ليرجموه. وكان شاول أصلع الرأس قميئاً أجناً الكتفين، وكان بعدُ دميم الشكل، ولم أكن أميل إليه.

ولقد انتهى إليّ أنه اليوم يبشّر بعيسى من فوق سطوح البيوت. . . عسيرٌ عليّ أن أصدق.

غير أن القبر غير مستطیع أن يحول بين عيسى وبين أن يخطو إلى معسكر أعدائه، ليؤلف بين قلبه وبين قلوبهم، وليأسر الذين يناصبونه العداً بجميل الفعال.

ومع أنني ما زلت أكره هذا الرجل الطرسوسي، فقد بلغني أنه بعد موت اسطفانوس رُزق من أسلس قياده وغزا قلبه بالإيمان، غير أن رأيه كان بالقياس إلى فؤاده كبيراً، وما هكذا يكون الحواريّ الحق.

ولعليّ على ذلك أكون مخطئاً، فما أكثر ما أخطيء.



ثوما عن شكوك أسلافه

قال لي جدِّي يوماً وكان من المرشّعين: « فلنتبع الحق . لكن ، فليكن تدبّرنا إياه جلياً بيّناً » .

ما إن دعاني عيسى حتى ألقيت بالأ إليه ، إذ كان في أمره أقوى من إرادتي ، غير أنني التزمتُ بنصيحة جدّي .

فحين تكلم عيسى وكان الناس من حوله يتمايلون طرباً تمايل الأغصان في مهبّ الريح ، أصغيت إليه جامداً لا أحرك ساكناً ، ولكنتني أحببته .

ولقد خلفنا منذ أعوام ثلاثة رفقاء قد تفرّقوا أيدي سبأ يتغنّون باسمه وكانوا شهوده الداعين له بين الأمم .

وكنت عندها أدعى توما الشكّاك ، وكان طيف جدّي لا يفارقني ، وكننت أرغب دائماً في أن يطالعني الحقُّ جلياً بيّناً .

بل إنني قبل أصدّق أنني جريح كنت أضع يدي على جرحي لأتحسّس الدم .

غير أن المرء الذي يحمل في قلبه الحب وفي فكره الشك لن يكون غير عبد في جوف سفينة ، ينام عند المجداف يحلم بحرّيته ولا يستيقظ إلا على سوط مولاه .

ولقد كنت أنا نفسي ذلك العبد ، وكننت أحلم بالحرية ، ولكنتي كنت أرزح تحت سبات جدّي ، وكان جسدي يعوزه السوط الذي تسوطني به أيامي .

وحتى في حضرة الناصريّ كنت أغمض عيني ، لأجد يديّ مشدودتين بالأغلال إلى المجداف .



ما الشك إلا ألم استبدت به الوحدة حتى إنه لم يعد يعرف أن الإيمان له توأم.

إن الشك كاللقيط البائس الشريد تريد أمه التي ولدته أن تحتضنه فيرتد في حذر وخوف، إذ لن ينتهي الشك إلى اليقين حتى تلتئم جراحاته وتندمل. ولقد كنت في شك من عيسى حتى طالعنا بما عنده، وسبرت بيدي جراحاته.

عندها آمنت حقًا، وبعدها برئت من أمسي وأمس أسلافي الأولين. أما ما كان مني فانيًا فقد عفى بعفاء أسلافي، وكل حيّ فيّ سوف يحيا من أجل ذلك الملك المسوح بالزيت المقدّس، عيسى ابن الإنسان. وبالأمس قالوا لي: إنه قرّض عليّ أن أذهب وأذيع اسمه بين العجم والهندوس.

ولسوف أذهب، ومن اليوم إلى أن أموت، مع مرّ الغداة وكرّ العشيّ، سوف أرى المعلّم الهادي يتسامى في جلاله وسوف أسمع إليه يتحدث.



المودام (*) «المنطقى» عيسى المتمرّد

إنك تطلب إليّ أن أحدثك عن عيسى الناصريّ، وإن عندي كثيراً أقوله عنه، لكن الوقت لما يحن بعد. على أن كلّ ما أحدثك به عنه الآن هو الحق. . . إذ أن كلّ حديثٍ لا غناء فيه إلا إذا صدر عن الحق.

انظر إلى الرجل المتمرّد تراه حرباً على كل نظام، وانظر إلى الرجل المِعوز تراه يناوئ المالكين على ما يملكون، وانظر إلى الرجل السكّير لا تراه مرحاً إلا بين المتشردين والصعاليك.

ما نال في دولته حظ الابن الذي حظى بالجاه، ولا في إمبراطوريته نصيب المستوطن المرعيّ الحقوق، وهو لهذا كان يمتهن الدولة ويزدري الإمبراطورية.

ولقد أراد أن يعيش حرّاً متخفّفاً من كل واجب كما يعيش الطير في جوّ السماء. من أجل هذا أردّته سهام الصائدين صريعاً على الأرض.

وهل ينجو من الحجارة المتساقطة من يدكّ صروح الأمس المشيدة؟

وهل ينجو من الغرق من يفتح أبواب خزّان الفيضان الذي أقامه أسلافه؟

هذا هو الناموس، ولقد حبط عمل عيسى وأتباعه الحمقى وذهبت ريحهم حين خرج الناصريّ على هذا الناموس.

وكثيرون كانوا على شاكلته، أرادوا أن يغيّروا مجرى الأقدار، فإذا هم المردودون، وإذا هم الخاسرون.

(*) اسم علم عبراني.

وإنك لتجد إلى جانب أسوار المدينة كرمة لا تُثمر تزحف صُعداً متشبّثة بالصخور . فلو أن الكرمة حدثت نفسها وقالت : سوف أحطّم تلك الأسوار بحوّلي وثقلّي ، تُرى ماذا يقول غيرها من النباتات ؟ إنها لاشك سوف تسخر منها لغبائها؟

والآن يا سيدي . . . هل من سبيلٍ إلا السّخريةُ من هذا الرجل وحواريه الضالين ؟



إحدى المريمات عن حزنه وبسمته

كان مرفوع الرأس دائماً ، وكانت عيناه متوقدتين بنور الله .
وكان دائم الحزن ، ولكن حزنه كان رحمة منه بالموجعين ، وسلوى لكل
وحيد .

وكانت ابتسامته حين يبتسم كأنها اللفحة تبيّنها في وجوه المتشوقين إلى
الغيب ، وكأنها غبار نفضته النجوم على جفون الأطفال ، وكأنها كسرة الخبز
في الحلق .

لقد كان حزيناً ، ولكن هذا الحزن كان أقرب إلى أن يعلو الشفاه فيستحيل
بَسْمَةً .

ألا ما أشبه بَسْمَتَهُ بهذا الستر الذهبي الذي يكسو الغابة حين يهّل الخريف
على الكون ، وما أقربها أحياناً إلى نور القمر وهو يجلّل شواطئ البحيرة .

وحين يبتسم فكان شفّته أخذتان في أنشودة بوليمة عرس .

غير أنه كان حزيناً حزن الطائر القويّ الجناح ، لا يريد أن يسمو فوق رفيقه
وهو يحلّق .



رومانوس الشاعر اليوناني عيسى الشاعر

كان شاعراً، وكان لنا العين الرائية والأذن السامعة، وعلى شفثيه كانت تجري كلماتنا الصامته، وبمس أصابعه كان يتحسس ما نعجز عن إحساسه.

وعن قلبه انطلقت مُحلقةً مغرّدةً أناشيدهُ التي لا تُحصى نحو الشمال ونحو الجنوب. وعلى متعرجات التلال كانت الزهور القليلة المتناثرة تحوط خطاه وهو يصعدُ في السماء.

وما أكثر ما رأيتُه ينحني نحو الأرض يمسّ بيده نصال الأعشاب. وفي نجوى القلب استمعت إليه يقول: أيتها النباتات الصغيرة الخضراء، سوف لا يخلو منك ملكوتي، كما لن يخلو من بلوط نيسان وأرز لبنان، سواء بسواء.

وكان يحبّ كل جميل: وجوه الأطفال الحفيرة، وتلك الأفويه من مرّ وكندر التي يُؤتى بها من الجنوب.

ولقد كان يحب الرمانة أو الكأس من نبيذ تُقدّم إليه في أنس ومودة، يستوي في ذلك أن يكون المُهدي غريباً طارئاً، أو رباً من أرباب الدور الأثرياء.

كما أحبّ زهرات اللوز، وما أكثر ما رأيتُه يجمعها في كفيه وينثر وريقاتها على وجهه، وكأنه حين يفعل يعانق أشجار الدنيا جميعاً حباً وهياماً.

ولقد عرف البحر كما عرف السموات. وتحدّث عن درّ له وميض ليس من لون وميضنا، وعن نجوم تبرز في غير ليالينا.

ولقد عرف الجبال كما تعرفها النسور، وعرف الأودية كما تعرفها

النهيرات والجداول . وكان في صمته الصحراء الموحشة ، وفي حديثه الحديقة
المونعة .

أجل ؛ فلقد كان شاعراً اتخذ قلبه خميلةً فيما وراء العُلا سكناً له . وأناشيده
التي كان يردها لنا كان يغنيها أيضاً لأذان أخرى ، ولأناس على أرض غير هذه
الأرض ، حيث الحياة أبداً فتيةً ، وحيث الزمن كله فجر .

ولقد نخيل إليّ مرةً أني شاعر ، ولكنني حينما مثلتُ بين يديه في بيت عنيّا
عرفت كيف يكون حال مَنْ يُمْسِكُ بِأَلَّةِ لَهَا وَتَرٍ وَاحِدٍ أَمَامَ مَنْ الألات كلها ملك
يمينه ، إذ كان في صوته ضحك الرعد ودموع المطر وتطريب الأشجار وهي
ترقص في مهبّ الرياح .

ومنذ أن علمت أن قيثارتي لها وتر واحد ، وأن صوتي لا ينسج ذكريات
الأمس كما لا ينسج أمانني الغد ، طرحتها جانباً ولن أحرك بعدها لساناً بقول .
ولكنني لن أنفك مع الغسق أنصت ، ولسوف أستمع إلى هذا الشاعر الذي يتربّع
أميراً فوق كل الشعراء .



لاوي أحد التلاميذ

عن أولئك الذين ودوا لوضيقتوا الخناق على عيسى

في أمسية يوم مرّ بداري فاضطربت روحي بين جنبيّ. ولقد تحدّث إليّ
يقول: إلىّ يا لاوي، ثم لتبعني.

ولقد تبعته ذلك اليوم.

وفي أصيل اليوم التالي طلبت إليه أن يلمّ بداري وأن يكون ضيفي، فجاز
عتبة داري ومعه صحابه، وباركني وزوجي وصغاري.

وكان في داري ضيوف آخرون من العشارين ورجال المعرفة، وكانوا كلهم
ينفرون منه بقلوبهم.

وعندما جلسنا جميعاً إلى المائدة انبرى واحد من العشارين يسأل عيسى
قائلاً: أحقاً أنك أنت وتلاميذك لا تأبهون للشرائع وأنكم توقدون النار يوم
السبت؟

وأجابه عيسى قائلاً: في الحق أننا نوقد النار يوم السبت، وبودنا لو أضرمنا
السبت ناراً، وأنا أحرقنا بمشاعلنا ما عند الأيام كلها من يابس القصب.

وانبرى له عشار آخر يسأله: لقد بلغنا عنك أنك تشارب الرعاع الخمر في
الحانات.

فأجاب عيسى: نعم؛ حتمّ علينا أن نهون على هؤلاء، وما جئنا إلا لنشارك
غير المتوجّين منكم والحفاة رغيفهم الذي يأكلون، وكأسهم التي يشربون.

أجل؛ قليل، بل جدّ قليل، هؤلاء الذين لا ريش لهم ثم هم على ذلك

يصارعون الريح لا يبالونها . وما أكثر من لهم أجنحة قد كمل ريشها وهم مع ذلك لا يبرحون أعشاشهم ! نُطعمهم جميعاً بمناقيرنا ، الخامل منهم والناهض .
ثم قال له عشار آخر : ألم يبلغني عنك أنك تدعو إلى حماية البغايا من بنات بيت المقدس ؟

عندها رأيت في وجه عيسى مرتفعات لبنان السماء وإذا هو يقول :

إن هذا لهو الحق ، وفي الحساب سوف ينهض هؤلاء النسوة أمام عرش الله ، وسوف تكون دموعهن لهن طهراً ، ولكنكم سوف تُسحبون في الأغلال جزاء ما كنتم تدينون به الناس .

وما كان خسف بابل بفعل الساقطات فيها ، لكن بابل استحالت رماداً حتى لا يرى المنافقون بياض النهار أمداً آخر .

* * *

ولقد حاول غير واحد من العشارين أن يسأله ، ولكنني أشرت إليهم أمرهم بالسكوت ، لأنني كنت على يقين أنه سوف يدعهم في حيرة من أمرهم ؛ ثم إنهم كانوا ضيفي ، وما كنت أحب لهم أن يهونوا ويذلوا .

وعندما انتصف الليل ترك العشارون داري وإن نفوسهم لكليلة حسرى .

وما إن أطبقت جفني حتى رأيت رؤيا ، أبصرتُ فيها سبع نسوة في حُلل بيض وقفن محيطات بعيسى ، وقد عقدن أذرعهن على صدورهن وإن رؤوسهن لمنكسات . ولقد أنعمت النظر في غياهب رؤيائي فتبينت وجه واحدة من هؤلاء النسوة السبع ، وإذا هو يضيء عليّ ظلامي . لقد كان وجه ساقطة أعرفها من ساقطات بيت المقدس ، وعندها فتحت عيني ونظرت إليه ، فإذا هو يتسم إليّ وإلى الأخريات اللاتي لم يكن قد تركن المائدة .

ثم أطبقتُ جفنيّ ثانيةً فرأيت نوراً، ورأيت في النور سبعة رجال في ثياب
بيض واقفين حوله، وتبيّنت وجه واحد منهم، فإذا هو وجه هذا السارق الذي
صُلب فيما بعد إلى يمينه .

وفي وقت متأخر خرج عيسى وأصحابه يضربون في طريقهم .



أرملة من الجليل عن قسوة عيسى

كان ابني هو البكر وما ولدت غيره، وكان يعمل في حقلنا، وكان بذلك راضيًا، إلى أن سمع بذلك الرجل الذي يدعى عيسى يتحدث إلى الجماهير. عندها تغير ابني فجأة وكان روحًا غريبة فاسدة خالجت روحه. فهجر الحقل والبستان كما هجرني أيضًا، وأصبح لا نفع عنده وأضحى واحدًا من الأفاكين. فلقد كان عيسى الناصري بليّة من البلايا، فهل من دأب الرجل الطيب أن يفرّق بين الابن وأمه؟

وكان آخر ما قاله لي ابني: «إني ذاهب مع تلميذ من تلاميذه إلى البلاد الشمالية، فلقد أصبحت حياتي وقفًا على الناصري، ولقد ولدتني وإني لك على هذه لمن الشاكرين، ولكنني أرى واجبًا عليّ أن أرحل، أو لستُ مخلّفًا لك أرضنا الخصبة وكل ما لنا من ذهب وفضة؟ فلن أحمل معي إلا هذه الحلة وتلك العصا».

هكذا قال لي ابني قبيل الرحيل.

والآن قد قبض الرومان والكهنة على عيسى وصلبوه، وحسنًا فعلوا. إن الرجل الذي يفرّق بين الأم وابنها بعيدٌ أن يكون من الأتقياء الورعين. وإن الرجل الذي يدفع بأبنائنا إلى مدن الأمميّين من غير اليهود، بعيدٌ أن يكون لنا صديقًا.

وإني لعلّى يقين بأن ابني لن يعود إليّ. لقد حدستُ ذلك في عيني، وإني

لهذا أبغض عيسى الناصري الذي كان سبباً في أن أعيش وحيدة على حقل لم يظفر بعده بمن يحرثه ، وبستان جفت شجيراته .

إني لأبغض كل الذين يثنون عليه .

ومنذ أيام معدودات قالوا لي : إن عيسى قال مرة : إن من يستمعون إلي قولتي ويتبعونني هم لي بمنزلة الأب والأم والإخوة . ولكن لم يدعوا الأبناء لهجر أمهاتهم كي يقتفوا خطاه ؟

وكيف ينسى ابني لبن ثديي طامعاً في نبع لما يذوق حليبه بعد ؟

وكيف يهجر دفء ذراعي إلى البلاد الشمالية حيث لفتح البرد ووحشة العداة ؟

نعم ، إني أكره الناصري وسوف أكرهه إلى آخر حياتي ، لأنه سلبني ابني البكر . . . ابني الوحيد .



يهوذا قريباً عيسى عن موت يوحنا المعمدان

في ليلة من ليالي شهر أغسطس كنا مع معلّمنا في مرج غير بعيد من البحيرة، وكان أسلافنا يسمّون هذا المرج: مرج الجماجم.

وكان عيسى قد اضطجع على الأعشاب وأخذ يتطلع إلى الكواكب، وفجأة دلف إلينا رجلان يندفعان نحونا وهما يلهثان، وكانا كأنهما في محنة. فوقعا على قدمي عيسى منظر حين، فانتصب عيسى واقفاً وهو يقول: من أين جئتما؟ فأجابه أحدهما: من عند مكاريوس.

وتطلع إليه عيسى قلقاً وهو يقول: وما علمكما عن يوحنا؟

فقال الرجل: لقد ذبحوه اليوم. لقد ضربوا عنقه وهو في زنزانه.

عندها رفع عيسى رأسه إلى السماء، ثم خطا مبتعداً عنا خطوات قليلة، وبعد برهة عاد ووقف بيننا، ثم قال: «لقد كان بوسع الملك أن يذبح النبي قبل يومنا هذا. حقاً إن الملك كان يطلب رضى رعاياه. إن الملوك في سالف العصر لم يكونوا على مثل هذه الحال من التريث في تمكين قاطعي الرقاب من رؤوس الأنبياء.

ما حزنت ليوحنا، ولكنني حزنت لهيرودس الذي أمر السيف أن يهوي.

يا له من ملك مسكين أشبه شيء بالحيوان يُشدّ ويُقاد في أنشودة وحبل! ويا لهم من حكّام توافه مساكين أولئك قد ضلّوا في غياهب أنفسهم فتعثروا وانكفثوا على وجوههم. وماذا أنت راج من البحر الراكد غير أسماك ميتة؟

ما نقتتُ على الملوك ، فخلّوا بينهم وبين الناس يحكموهم على أن يكونوا
فوق الناس عقلاً . »

ثم نظر عيسى إلى هذين الوجهين الحزينين ونظر إلينا ، ومضى في حديثه
يقول .

« لقد وُكِدَ يوحنا جريحاً ، ولقد جرت دماء جراحه متدفقة مع كلماته .

كان ينطوي على حرية لم تتحرر بعد من قيد نفسها .

وكان صبوراً ذا أناة ولكن مع ذوي القصد والعدل ، ولقد كان حقاً صوتاً
مدوياً فوق أرض الصم ، وقد أحببته في أحزانه وفي وحدته .

كما أحببت فيه شمه حين جاد برأسه للسيف بدلا من أن يلامس بهذا
الرأس الرغام

وحقاً أقول لكم إن يوحنا بن زكريا كان الأخير من نوعه ، وكما ذُبح
أجداده من قبل ذُبح هو بين عتبي الهيكل والمذبح . »

ثم خطا عيسى بعيداً عنا ، ولم يلبث أن عاد إلينا قائلاً :

« منذ الأزل كان أولئك الذين حكموا لساعة يذبحون حكماً حكماً سنين
قبلهم .

« ومنذ الأزل كانوا يعقدون المحاكمات ويدينون امراً لم تُكتب له الحياة
بعد ، ويقضون بموته قبل أن يقترف جريمة . سوف يحيى ابن زكريا إلى جوارى
في ملكوتي ، وسوف يكون يومه ممتداً .

ثم تحوّل إلى تلميذي يوحنا يقول لهما :

« لكل فعل غده . وقد أكون أنا الغد لهذا الفعل .

ارجعنا إلى رفاق صحابي وقولا لهم : سأكون معهم دومًا «
وهناك انفصل عنا الرجالان ومضيا وقد تخففا من الهمّ .
ثم عاد عيسى فاضطجع على العشب ومدّ ذراعيه وأخذ يتطلع إلى
الكواكب من جديد .
وكان الليل قد طعن ، ولم أكن مضطجعا بعيداً عنه .
وكنت راغباً في الراحة . غير أن يداً كانت تدقّ باب نومي ، فاستلقيتُ يقظاً
إلى أن هتف بي عيسى مع الفجر لنمضي على الدرب .



رجل من الصحراء عن الصيارفة

كنت غريباً عن أورشليم، وكنت قد قصدتُ المدينة المقدسة لأشاهد الهيكل العظيم، ولأقدم القرابين على المذبح، إذ كانت زوجتي قد أنجبت لعشيرتي توأمًا. وبعد أن قدّمتُ ما قدّمتُ من عطايا وقفت في رواق المعبد أشاهد الصيارفة، وأولئك الذين يبيعون الطير لمن يبغى أن يقدم قربانًا، وأستمع إلى الأصوات الصاخبة في الساحة.

وفيما أنا واقفٌ باغتنا رجلٌ جليل مهيب بظهوره في حشد الصيارفة وباعة الطير.

كان يمسك بيده حبلًا من جلد الماعز، وقد أخذ يَقلب موائد الصيارفة ويسوط باعة الطير بالحبل، وسمعته يقول في صوت جهوري: «أسلموا هذا الطير إلى السماء التي هي عشته».

وأخذ الرجال والنساء يفرّون أمام وجهه، وكان يمرّ بينهم كما تمرّ الرياح العاصفة فوق آكام الرمال.

حدث هذا كله كلمح البصر، وسرعان ما خَلَّتْ ساحة المعبد من الصيارفة، ووقف هذا الرجل وحده، ووقف على قُرب منه أتباعه.

وهنا حانت مني التفاتة فرأيت رجلاً آخر في رواق الهيكل، فاتجهت نحوه وقلت له: سيّدي، مَنْ هذا الرجل الذي يقف وحده وكأنه هيكل آخر؟

وأجابني : هذا عيسى الناصري . . نبيّ ظهر حديثاً في الجليل . والناس هنا في أورشليم يبغضونه جميعاً .

فقلت : إن قلبي من القوة بحيث يكون ظهيراً لسوطه ، ومن الاستسلام والخضوع بحيث يرتمي عند قدميه .

وتحوّل عيسى إلى أتباعه وكانوا في انتظاره ، وقبل أن يبلغهم طارت ثلاث حمامات من حمام الهيكل عائدة إليه ، فهبطت إحداها على كتفه اليسرى ، في حين هبطت الأخرى عند قدميه ، فربّت على كل منها في حنان ثم مضى ، وكانت كل خطوة من خطاه تطوي فراسخ وفراسخ .

ألا فلتخبرني الآن أية قوة تأتت لهذا الرجل كي يهاجم مئات من الرجال والنساء دون مقاومة ؟

ولقد حدثت أنهم جميعاً يبغضونه ، ومع ذلك فإن واحداً منهم لم يتصدّ له ذاك اليوم . أتراه انتزع مخالباً الحقد وهو في طريقه إلى ساحة الهيكل ؟



بطرس عما سيطالع به الغد أصحابه

ذات يوم وقد أذنت الشمس بمغيب، سار بنا عيسى إلى قرية بيت صيدا،
وكنّا رفقاء أكدّهم السير وعلاهم غبار الطريق. وانتهينا إلى دار فارهة تتوسط
حديقة، وقد وقف صاحبها بالقرب من الباب.

فقال له عيسى: إن هؤلاء القوم قد تقرّحت أقدامهم وأنهكهم التعب، فهلا
أذنت لهم في أن يناموا في بيتك فلقد عضّتهم الليل ببرده، وهم في حاجة إلى
الدفء والراحة.

فأجابه هذا الرجل الغني: لن يناموا في بيتي.

فقال له عيسى: هلاّ أبحت لهم أن يناموا في الحديقة؟

وأجاب الرجل: كلا، لن يناموا في حديقتي.

عندها التفت عيسى إلينا وقال: « هذا هو ما سيطالعكم به الغد، وما أشبه
حاضرکم بمستقبلکم، ولسوف توصل الأبوأب كلها في وجوهكم، حتى
الحدائق التي ترقد في ظل نجوم السماء لن يكون لكم فيها مضطجع. فإن
صبرت أقدامكم لوعثاء الطريق ومضت في إثري فلعلكم واجدون طستًا
وفراشًا، وواجدون أيضًا خبزًا ونبيلًا.

وإذا قُدر لكم ألا تجدوا شيئًا من هذا كله فلا تنسوا عندئذ أنكم عبرتم معي
مفازة من مفازاتي.

هلموا معي ولنمض إلى سبيلنا.»

هنالك أخذ القلق يساور هذا الشريّ، واربدّ وجهه وهمهم بينه وبين نفسه
بكلمات لم تبلغ مسمعي، ثم انفصل عنا منقلبا إلى حديقته.
ومضينا نحن في إثر عيسى على الطريق.



ملاخي البابلي الفلكي معجزات عيسى

تسألني عن معجزات عيسى .

فاعلم أنه على رأس كل ألف سنة تلتقي الشمس والقمر والأرض وأخواتها
السيارات جميعاً على خط مستقيم تتشاور معاً برهة من الزمن ، ثم تنتشر من بعدُ
مُتَّدَّةً لتبقى مترقبة مرور ألف سنة أخرى .

فليس ثمة معجزات غير اختلاف الفصول ، غير أنه لا علم لك ولا لي بها ،
فماذا لو استحال الفصلُ منها إنساناً يستوي أماننا ؟

لقد تلاقت في عيسى عناصر أجسامنا وجواهر أفكارنا وفق قضاء قد قُدِّرَ ،
وأصبح كل ما لم يكن يحتويه زمان قبل مجيئه قد احتواه عيسى وأصبح من هذا
الزمان .

حدثوا أنه منح الأعمى النور ، والمُقعَّد السَّعي ، وأنه خلَّص المسوسين من
مسِّ الشيطان .

وقد لا يكون العمى غير عارض مُعتم ينقشع بعارض متألق ، وقد لا يكون
تبيس العضو إلا عن فتور قد تُسَعفه قوةٌ من نشاط ، وقد تَخْرُج الشياطين . تلك
العناصر المبلبلة في حياتنا . مطرودةٌ على أيدي ملائك الأمن والسكينة .

وحدثوا أنه أحيا الموتى . فإن استطعت أن تحدثني عما هو الموت ، أخبرتك
عما تكون الحياة ؟

وفي الحقل أنعمتُ النظر إلى جوزة البلوط ، فوجدتها لا حراك بها وبدالي

أن لا غناء فيها . وما إن حلّ الربيع حتى رأيتُ تلك الجوزة وقد ضربت جذورها
في الأرض وسمقت بساقها متطلّعة صوب الشمس متشكّلة شجرة بلوط
رصينة . وأنت حقًا سوف تعدّ هذا من الخوارق ، غير أنها خوارق تقع ألف مرة
بين سنّة الخريف ويقظة الربيع .

وما بالها لا تأخذ صورتها في قلب الإنسان ؟

أليست الفصول خليقة أن تلتقي في يديّ المسيح الممسوح بالزيت المقدس أو
على شفّتيه ؟

وإذا كان الله قد ألهم الأرض أن تحتضن البذرة عندما تبدو هذه البذرة ميّنة ،
فما له لا يلهم قلبًا من القلوب أن ينفث الحياة في قلب آخر يبدو ميّنا ؟

* * *

ولقد تحدّثتُ إلى الآن عن معجزات لا أعدّها شيئًا يُذكر إلى جانب تلك
المعجزة الكبرى التي هي هذا الإنسان نفسه : عابر السبيل الذي جعل من خبثي
ذهبًا ، والذي علّمني كيف أحبُّ مَنْ يبغضني ، فوسّدي الراحة بما فعل
وأمدّني في نومي بأحلام عذاب .

تلك هي معجزة حياتي أنا .

فلقد كانت روعي عمياء عرجاء ، واستحوذت عليّ أرواحٌ قلقة وكنت
من الأموات .

وإني الآن لأرى في جلاء ، وأسير منتصبًا على قدمين سواء ، قد
بلغتُ الأمن وأصبحتُ أحيًا شاهدًا على وجودي ، مفصّحًا عنه مع
ساعات النهار .

وما أنا واحد من أتباعه ، ولست غير فلكيّ عجوز يهيم بفكره المعرفي في
أجواز الفضاء مرّة كل فصل ، يريد أن يستطلع ما هنالك من نظام وخورق .
ولقد أدركتُ غسق حياتي ، ولكنني حين أريد أن أرى شفق الفجر أتطلّع
إلى شباب عيسى .

ولسوف تظل الكهولة إلى الأبد تنشد الشباب .
وإني لأجدني اليوم على علم يدفعني إلى البحث عن الرؤى .



فيلسوف عن الدهش والجمال

حينما كان معنا تطلع إلينا وتفحص عالمنا وفي عينيه دهشة، إذ لم تكن عيناه قد غشيتهما غشاوة الأعوام، فكان كل ما يرى يجلوه نور شبابه.

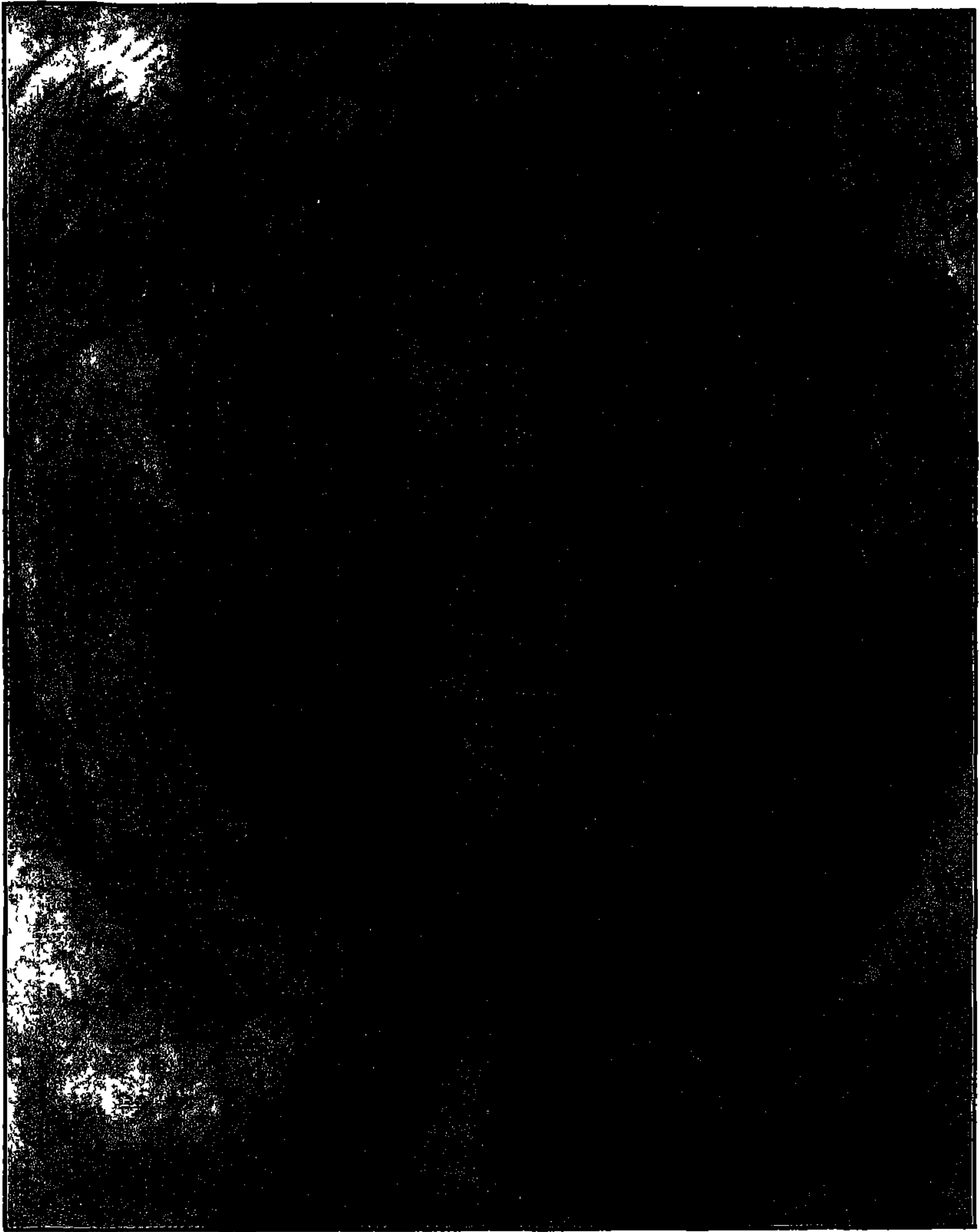
ومع أنه عرف الجمال، فقد كان أبداً مأخوذاً بجلاله وسكيتته، وتمثلت له الأرض كما تمثلها الإنسان الأول في يومه الأول.

ونحن الذين تبلدت منا الحواس ننظر في رائعة النهار فلا نرى شيئاً، ونُصيح أذاننا فلا نسمع، ونبسط أيدينا فلا نلمس. وينطلق كل ما في بلاد العرب من بخور فنمضي في طريقنا دون أن نستاف أريجها. ويؤوب الحارث من حقله مع الغروب فلا نكاده نراه. كذلك لا نسمع مزمار الراعي وهو يسوق غنمه إلى الحظيرة، ولا نمدّ أذرعنا لنذكر مغرب الشمس، ولم تعد حواس شمناً لهفئى لورود الشعرون.

أجل؛ فلسنا من سمو الروح بحيث نمجّد ملوكاً لا ممالك لهم، أو أن نسمع إلى أنغام القيثارة إلا إذا غمزت الأصابع أوتارها، أو أن نتطّلع إلى الأطفال يلعبون في أحراج الزيتون وكأنهم شجيرات منها صغيرة. ولا بد لنا من كلمات تجري على شفاه من لحم، وإلا عدّ بعضنا بعضاً صمّاً بكماً.

وفي الحق إننا نحملق ولا نرى، ونصيح ولا نسمع، ونطعم ونشرب ولكننا لا نستمرئ.

وهذا فرق ما بين عيسى الناصري وبيننا.



فإن حواسه كانت تتجدد مع الأيام، كما أن الدنيا ظلت تتراءى له دائماً في ثوب جديد.

ولم تكن لثغة الطفل عنده أقل إفصاحاً من صرخة البشر أجمعين، على حين أنها بالنسبة لنا ليست إلا لثغة فحسب.

وجذور الشقائق كانت في حسبانها تمتد مدفوعة بالشوق إلى بارئها، وهي في تقديرنا ليست إلا جذوراً فحسب.



أوريا : شيخ من الناصرة « كان غريباً على بيتتنا »

كان غريباً عن بيتتنا، وكانت حياته محجبة بحُجُب كثيفة ولم يسلك سبيل ربنا، ولكنه مضى في طريق الشرّ والرذيلة .

كانت طفولته تمرّداً وعصياناً، فصدّ عما غدّتنا به طبيعتنا من لبن سائغ .
وكان شبابه مضطرباً مضطرباً اضطرّام الحشائش اليابسة عند احتراقها في جنح الليل .

وحين بلغ مبلغ الرجال كان علينا جميعاً حرباً .

ومثل هؤلاء الرجال حملت بهم أمهاتهم حين انحسار الرحمة من بني الإنسان، ووكّدوا مع العواصف المهلكة المدنّسة، وفي هذه العواصف يعيشون يوماً ثم يبيدون إلى أبد أبيد .

ألا تذكره صبيّاً تيّاهاً متعجرفاً، يجادل الشيوخ من علمائنا ويهزأ بأقذارهم؟

ثم ألا تذكره شاباً حين كان يسعى بمنشاره وإزميله، لا يريد أن يصحب أبناءنا ولا بناتنا أيام الفراغ، ويرغب في أن يمضي وحيداً . كان لا يُحيّ مَنْ يُحيّيه وكأنه يعلوهم قدراً، ولقد قابلته أنا نفسي مرة في الحقل وحيّته فما زاد على أن ابتسم لي، وفي بسمته تبيّنت التعالي والازدراء .

وبعد ذلك بوقت غير بعيد ذهبت ابنتي في صحبة رفيقاتها إلى الكرم لتجمع العنب، ولقد تحدّثت إليه هي الأخرى فما أجابها .

إنما تحدّثت إلى جنّة العنب جُملةً، كأنما ابنتي لم تكن واحدة بينهم .

وحيثما اعتزل قومه وهام على وجهه لم يعد غير ثرثار، وكان لكلماته وقع
المخلب في أجسادنا، ولا يزال رجع صداها تعيه ذكراتنا أَلْمًا وهَمًّا .

وما كان يذكرنا ولا يذكر آباءنا ولا أجدادنا إلا بسوء، وكان لسانه ينفذ إلى
صدورنا نفاذ السهم المسموم .

على هذا كان عيسى .

ولو كانت المقادير قضت بأن يكون لي ابن، إذا لألحقته بالجيوش الرومانية
الزاحفة إلى بلاد العرب، وضرعت إلى القائد أن يضعه في الصف الأول من
المعركة ليصوب إليه العدو سهامه ويخلصني من صلفه .

ولكني لا وكدي، ولعلي خليق أن أشعر لهذا بالحمد .

فكيف تكون حالي لو أن ابناً لي استحبال عدوا لأهله، وتعفر شعري
الأشهب بتراب العار، ولطخت لحيتي البيضاء بالصغار؟



نيقوديموس الشاعر أقل شيوخ مجلس اليهود - السنهدريم - سنا

عن الحمقى والمزيفين

ألا ما أكثر الحمقى الذين يزعمون أن عيسى وقف حجر عشرة في طريقه هو؛ وعارض نفسه، وأنه لم يدرك كنه ما يريد، وفي عَوَزِه هذا إلى المعرفة التبتت عليه الأمور.

وكثيرةٌ حقًا هذه البُوم التي لا تعرف شدواً غير نعيقها.

وإني وإياك لنعرف هؤلاء المزيفين القول، الذين لا يعظّمون إلا مَنْ هو أكثر منهم زيفًا، هؤلاء الذين يحملون عقولهم في سلال إلى الأسواق يبيعونها أول من يساومهم عليها.

وإنا لنعرف هؤلاء الأقرام الذين يحطّون من شأن العمالقة، وإنا لندرى ما العُشبة قائلة عن شجرة البلوط والأرز.

وإني لأرثي لهم لقصورهم عن أن ينهضوا إلى مراقبي الدرّى.

كما أرثي لتلك الأشواك اليابسة وهي تنفس على شجرة الدرّاء بقاءها على مرّ الفصول.

لكنه رثاء سوف لا يجلب لهم النور، ولو شفّعتهم الملائكة أجمعون بالأسى.

وإني لأعرف هذه « المَفْرَعة » التي تُقام في الحقول تخفق أهدامها البالية بين أعواد القمح، وهي مع هذا تُعدّ من الأموات لدى القمح وعند الريح المدوية.

وإني لأعرف هذا العنكبوت وهو لا جناح له، ينسج الأعشاش لكل طائر بجناحين.

وإني لأعرف هؤلاء الماكريين والزامرين والطبّالين الذين لا يقوون في غمرة جلبتهم على أن يستمعوا للبلابل ولا لنسمة الشرق في الحرجات .

وإني لأعرف هذا الذي يجذّف ضد مسيل المجري وما هو ببالغ المنبع أبداً، وهذا الذي يجري مع مسيل الأنهار وما هو بمقتحم البحر أبداً .

وإني لأعرف هذا الذي يتقدّم إلى باني الهيكل بيدين تُعوزُهُما المهارة، حين يكتشف أن يديه هاتين غيرُ مقبولتين فيضمُرُ في نفسه المظلمة السوء والتخريب .

أعرف هؤلاء جميعاً . إنهم الرجال الذين لا يسيغون قول عيسى ذات يوم :
لقد جئتكم بالسلام، وقوله في يوم آخر : لقد جئت بالسيف .

وما أعجزهم عن أن يفهموا أنه يعني صدقاً : إني جئت بالسلام لمن طابت نواياهم، وجعلت حدّ السيف بين هذا الذي يبغي سلكاً وبين هذا الذي يبغي حرباً .

وإنهم ليعجبون لمن يقول : « إن ملكوتي ليس على هذه الأرض » ، ثم إذا هو يقول : « أعط ما لقيصر لقيصر » . وهم لا يعرفون أنهم إذا رغبوا حقاً في أن يُخلّى بينهم وبين العالم الذي إليه يشتاقون، فعليهم ألا يغالبوا هذا الحارس القائم على منافذ شهواتهم، بل خليق بهم أن يدفعوا الجُعلَ المطلوب عن رضى ليدخلوا تلك المدينة .

هؤلاء هم الرجال الذين يقولون : لقد كان يدعو إلى التسامح والرحمة والحب البنوي، على حين لم يُلق بالآلامه وإخوته الذين مضوا يبحثون عنه محاولين العثور عليه في شوارع بيت المقدس .

وهم لا يعرفون أن أمه وإخوته كانوا يودّون أن يعودوا به إلى حانوت النجار

مدفوعين بشفتهم عليه ، على حين كان هو يفتح عيوننا لتطالع فجر يوم جديد .

ولقد كان بودّ أمه وإخوته أن يعيش في ظل العدم ، بينما كان هو نفسه يصارع الموت على ذلك التلّ من أجل أن يحيا في ذاكرتنا التي لا تغفو .

وإني لأعرف حيوان الخلد مطموس البصر الذي يحفر مساربه فتتهي به إلى لا شيء ، ألا يشبهه أولئك الذين يزعمون باطلا أن عيسى يعظم نفسه في مخاطبته الجماهير قائلا : « إني أنا الطريق إلى الخلاص وإني بابه » ، وكذا في تسميته نفسه « بأنه الحياة وأنه البعث » .

وما أفصحَ عيسى عن غير ما يُفصح عنه شهر مايو في أوجه .

الآن حديثه كان شديد النّصوع يقال : إنه لم يكن الحق الأبلج ؟

ولقد قال حقًا : « إنه طريق القلب وحياته وبعثه » ، وأنا نفسي شاهد حيّ على صدقه . ألا تذكروني ؟ إنني أنا نيقوديموس الذي لا يدين بشيء غير القوانين والشرائع ، والذي عاش دومًا لا يحيد عنها .

انظروا إليّ اليوم : رجل يمضي ساعياً مع مولد الحياة ويتهلّل ضاحكًا منذ لحظة بزوغ الشمس من وراء الجبال مبتسمة حتى تتوارى فتحجبها التلال .

فما بالكم تستوقفكم كلمة الخلاص ؟ إني أنا نفسي نلتُ خلاصي به .

وما أنا بمُلّق بالألما سيحلّ بي في غد ، فلقد وجدت أن عيسى قد بعث الحياة في منامي وجعل من أحلامي البعيدة صحابي ورفاقي على الطريق .

أنحسبون أنني نزلت عن بعض قدري لأنني آمنت برجل أعلى منّي قدرًا ؟

لقد انكشف عني ما يحجبني من لحم وعظم حين تحدث إليّ شاعرُ الجليل ،
وأصبحت في قبضة الروح تسمو بي إلى الذرى . فلما بلغت أجواز الفضاء
انضم جناحيّ على أغنية شوق ، وعندما هبطت من الفضاء وقُصت قواذمي
في بيت اليهود ، ظلت أعضائي وجناحيّ غير المرشّين تحفظ تلك الأغنية
وترعاها . وما هذه الأرض الدنيا ، بجذبها وقحطها بقادرة على أن تنزع عني
كنزي .

وحسبي الآن ما قلت ، دع الأصمّ يغيب دويّ الحياة في أذنيه الهامدتين .
فإني بأنغام قيثارته لراض ، تلك القيثارة التي أمسك بها وعزّف عليها ويداه
مدققتان بالمسامير تنزفان دماً .



يوسف الرّامي بعد عشر سنوات النهران الجاريان في قلب عيسى

نهران كانا يجريان في قلب الناصري : نهر الانتماء إلى الله الذي كان يدعوه أبا، ونهر البهجة والفرح الذي كان يسميه ملكوت السموات العلا .

وكنت في خلوتي أفكر فيه وأمضي مع هذين النهرين في قلبه . وعلى شاطئ أولهما وجدت روحى ، وكانت هذه الروح حيناً شاردة تهيم على وجهها ، وحيناً أميرة في بستانها .

ثم مضيت مع النهر الآخر في قلبه ، وفي سبيلي وجدت رجلاً يضرب ويسلب منه ذهبه ، وكان على هذا يتسم . ثم مضيت بعيداً فرأيتُ هذا السارق الذي كان يسرقه وعلى وجهه دموع لم تنهمر .

وعندها استمعتُ إلى خرير هذين النهرين في صدري أيضاً ، فابتهجت نفسي . وعندما زرتُ عيسى قبل اليوم الذي ألقى القبض عليه فيه بيلاطس البنطي والشيوخ ، تكلمنا طويلاً وسألته كثيراً . ولقد أجابني عن أسئلتى بصدق رحب ، وما إن تركته حتى تبينت أنه لدينا المولى والمعلم .

ما أطول ما كان منذ أن سقطت شجرة الأرز ، غير أن عبيرها لا يزال باقياً ، ولن ينفك إلى الأبد ينبعث إلى وجهات الأرض الأربع .



جرجس البيروتى عن الغرياء

كان هو وصحابه في غيضة من أشجار الصنوبر وراء سور لي يتبادلون الحديث .
ولقد وقفت قريباً من السور أصغى فعرفت مَنْ هو ، إذ كانت شهرته قد
طبقت هذه الشيطان قبل أن يُلمَّ هو بها .
وعندما أمسك عن الكلام اقتربت منه وقلت : هل لك يا سيدي أن تأتي
أنت وهؤلاء الرجال فأشرف بكم وتشرف بكم داري .
فابتسم إليّ وقال : فليكن غير هذا اليوم يا صديقي ، فليكن غير هذا اليوم .
وإن كلماته لتفيض سعادة وبركة ، وإن صوته ليزمّني مثلما يزمّني الرداء
في الليلة القارصة .
ثم التفت إلى صحابه يقول لهم : هاكم رجلا لا يجدنا غرباء وما رأنا قبل
اليوم ، لكنه يدعونا إلى اجتياز عتبة بابه . وما في مملكتي حقاً من غريب ،
فحياتنا هي حياة الآخرين ، مُنحناها لتكون وسيلتنا إلى تعرف الناس كافة ،
وفي ظل هذه المعرفة يكون حبنا لهم .
وهل أعمال الناس إلا أعمالنا ، ما استتر منها وما ظهر ؟ إنني أهيب بكم ألا
تكونوا ذاتاً بعينها ، بل أحرى بكم أن تكونوا ذواتاً عدّة : ليكن منكم ربّ
الدار ، ومن لا دار له ، والحارث ، وهذا العصفور الذي يلتقط الحبّ قبل أن
يستكنّ في الأرض ، والواهب الذي يهب عن امتنان ، والمتقبّل للعطاء الذي
يتقبّله في عزة وعرفان .

ليس جمال الأيام فيما تراه أنت وحدك، بل فيما يراه أيضاً غيرك من الناس.

ولهذه اخترتكم من بين هؤلاء الكثيرين الذين اختاروني.

ثم التفت إلى ثانية وهو يبتسم وقال: وإني لأحدثك أنت الآخر هذا الحديث، ولسوف تذكره أنت الآخر.

وهنا تضرعت إليه قائلاً: هل لك أن تلمّ بيّتي أيها المعلم.

فأجابني: إني لأعرف مكنون قلبك... وهكذا أكون قد زرتُ بيتك الأكبر.

وعندما أخذ يسير بعيداً عنا بين تلاميذه قال: طاب ليلك، وعسى أن يتسع بيتك لكل من يهيمون على وجه الأرض.



مريم المجدلية

كان فمه كأنه قلب رمانة ، وكانت الظلال في عينيه تنم عن عمق . وكان لطيفاً لطف الرجل المعتز بقوته .

وكنت أرى في منامي ملوك الأرض قد وقفوا خاشعين بين يديه . وبودّتي أن أصف محياه ، ولكن أنى لي ذلك ؟

لقد كان يحكي ليلاً لا يغشاه ظلام ، ونهاراً لا تعكّره جلبه النهار . الهمُّ يغشي وجهه والبشر يعلوه .

وإني لأذكرُ بيّناً كيف رفع يده مرةً إلى السماء فبدت أصابعه في تفرّقها وكأنها أغصان شجرة دردار

وإني لأذكره وهو يضرب في المساء بخطاه ، لا يمشي كما يمشي الناس . إنه هو نفسه طريق فوق الطريق ، كأنه سحابة تُغشي الأرض تودّ لو تساقط عليها مطراً لتُعشها .

ولكنني عندما وقفت بين يديه أتحدث إليه كأن رجلاً من الرجال ، وقد هبتُ التطلع إلى وجهه . إذ ذاك قال لي : ماذا تبغين يا مريم ؟

وما حرتُ جواباً ، وانطوت جوانحي على ما أسرّ ، وسرى الدفء في كياني . وإذ لم أقوَ على الصمود لسنى ضوئه أكثر من ذلك انكفات أمضي بعيداً ، لا مستخزية ولكن خجلةً فحسب ، وبودّتي لو خلوت إلى نفسي وأصابعه فوق نياط قلبي .

من يوثام الناصري إلى رجل من أهل رومه عن الحياة والوجود

أيها الصديق ، إنك كغيرك من الرومان تؤثر أن تتخيّل الحياة لا أن تحيا الحياة، وتؤثر أن يكون لك السلطان في الأرض على أن يكون لروحك سلطان عليك .

وتختارون أن تقهروا الأجناس لا تبالون أن تلعنكم ، على أن تقرّوا في رومه سعداء ناعمين .

لا فكر لكم إلا في جيوش تزحف وسفن تشقّ عباب البحار .

أنّى لكم إذن أن تلقنوا عن عيسى الناصري ؟ هذا الرجل البسيط المستوحّد ، الذي جاء في غير جند ولا سفن ليقيم مملكته في القلوب ، ويشيد حكمه في فضاء النفس المطلق .

أنّى لكم أن تلقنوا عن هذا الرجل غير المحارب الذي جاء مؤيِّداً بقُدرة السماء الجبارة؟

وما كان ربّياً ، ولكنه كان رجلاً مثلنا ، اجتمعت فيه رائحة المرّ المتصاعدة من الأرض فامتزجت بعير السماء ، وفي كلماته تضامات تمتتنا بهمسات الغيب ، وفي صوته نستمع إلى أغنية لا ندرك مداها .

أجل . لقد كان عيسى إنساناً ولم يكن ربّياً ، وفي هذه يكمن عجبنا وتكمن دهشتنا .

ولكنكم - معشر الرومان - لا تأبهون إلاّ بالأرباب - وليس لإنسان أن يثير

دهشتكم . وأنتم لهذا لم تلقنوا عن الناصري ، فهو موكول إلى كمال العقل وشبابه ، وأنتم مردودون إلى وهنه وشيخوخته .

ولقد كتبت لكم علينا السيادة اليوم ولكننا ننتظر بكم يوماً آخر . وما يدرينا لعل هذا الرجل الذي لا جند له ولا سفن تكون له السيادة في غدا

ونحن الذين نستجيب إلى الروح سنبدل بدل العرق الدم ونحن نجد في إثره ، ولن تكون رومه إذ ذاك إلا هيكلًا عظيمًا أبيض تلمحه الشمس .

سوف نعاني كثيراً ، غير أننا سوف نصبر لهذا وسوف نعيش ، ولكن لا مفرّ لرومه من أن تنهال ترابًا .

وإذا ما قُدّر لرومه - بعد ماتدلّ وتهون - أن تدعوه باسمه فسوف يُلقى بالا لدعائها . وسوف ينفخ في أطلالها بروح جديدة تنهض بها ثانية مدينة بين المدن على وجه الأرض .

ولكنه فاعل هذا دون فيالق ، ودون أرقاء على مجاديف سفنه . . . بل سيكون وحيداً .



إفرايم رجل من أريحا حفل عرس آخر

عندما عاد ثانية إلى « أريحا » سعيت أبحث عنه وقلت له : أيها المعلم ، غداً سيتخذ ولدي زوجة ، وإني أسألك راجياً أن تحضر حفل العرس فتوليننا شرفاً كذلك الشرف الذي أوليته ذلك العرس في بلدة قانا من منطقة الجليل .
أجابني ، « حقاً إنني كنت مرة ضيفاً في حفل عرس ، ولكنني لن أكون هذا الضيف ثانية ، إني أنا الآن العريس » .

فقلت له : إني أضرع إليك أيها المعلم أن تحضر حفل عرس ابني .
فتبسّم وكأنه يؤتّبني ثم قال : « ولم تضرع إليّ ؟ أليس عندك كفاء من نبيذ ؟ »
فقلت : إن قدوري ملأى أيها المعلم ، وإني على ذلك متوسّل إليك أن تحضر حفل عرس ابني .

عندها قال : « من يدري فقد أحضر ، قد أحضر حقاً ، هذا إذا كان قلبك بمكان المحراب من هيكل جسمك » .

وفي الغد تزوج ابني وما حضر عيسى حفل العرس . وقد كان ضيوفنا كثيرة غير أنني لم أحسّ أن إنساناً ألمّ بنا . وفي الحق الصراح لقد كنت أنا نفسي - من يرحّب بالضيوف - غير حاضر هناك .

لعل قلبي لم يكن محراباً حين دعوته ، أو لعلني كنت أبغي معجزة أخرى .



برقا .. تاجر من صور عن البيع وعن الشراء

إني لأعتقد أنه لا الرومان ولا اليهود فهموا عن عيسى الناصري . لا ، ولا تلاميذه الذين يبشرون باسمه اليوم .

فلقد ذبحه الرومان ، وكان ذلك أمراً إداً .

وأراد الجليليون أن يتخذوه إلهاً ، وكان ذلك ضللاً .

كان عيسى فلقاً من قلب الإنسان .

ولقد ركبتُ البحار السبعة ، وقايضت الملوك والأمراء ، كما أخذتُ من المحتالين والمطفقين وأعطيتُ في أسواق البلاد النائية ، غير أنني لم أجد رجلاً ذا بصر بالتجار كما كان عيسى . ولقد سمعته مرة يضرب هذا المثل :

« خلف تاجر بلاده إلى أرض غريبة . وكان له خادمان ، فأعطى كل واحد منهما قبضة من ذهب وهو يقول : كما سأخرج مغترباً ، كذلك اخرج أنتما سعياً وراء الربح ، ولتوفيا المبادلة حقها ، ولتعلمنا أن عليكما أن تفيدا حين تعطيان وحين تأخذان .

وبعد عام عاد التاجر . ثم سأل خادميه عما فعلا بذهبيهما .

فأجابه أولهما : انظر يا سيدي ، لقد اشتريت وبعيت ، ولقد ربحت .

فأجابه التاجر : لك ما كسبت يداك ، لأنك قد أحسنت وكنت لي ولنفسك وفيًا .

ووقف الخادم الآخر ثم قال : سيدي ، لقد خفت ضياع مالك فلم أشتري

ولم أبع ، وها هوذا ذهبك كله في هذا الكيس .

فأخذ التاجر الذهب وقال : ما أقل وفاءك . فلأن تقايض فتخسر خير من الأتمضي قُدماً ، فكما تُبعثر الريح الحَبّ وترقب الثمر كذلك يجدر بالتاجر أن يفعل ، وإنه لخير لك منذ الآن أن تخدم غيري .

وحين كان عيسى يتحدث هذا الحديث كان يكشف عن سر التجارة وإن لم يكن تاجراً . هذا إلى أن أمثله كثيراً ما كانت تزود عقلي بأفكار أبعد بُعداً من رحلاتي ، غير أنها كانت أقرب إلى من بيتي وبضاعتي .

وما كان الفتى الناصري إلهاً ، وإنها لحسرة أن يسعى أتباعه ليجعلوا من مثل هذا الحكيم إلهاً .



فوميا كبيرة الكاهنات في صيدون ضراعة

خُذْن القيثارة . خَلِّئِي أَغْنَى .
حَرِّكِي الأوتار عن عَسْجِدٍ ولُجَيْنٍ .
سَأَغْنِي عن الرجل المقدام
كَذَّبِح تَيْنِ الوادي
ثم انحنى يرنو في أسي
إلى هذا الذي ذَّبِح

* * *

خُذْن القيثارة وغنِّين معي .
سوامق البلوط في العلياء
تَغْنِيَنَّ عن الإنسان ذي القلب السماوي ،
واليد التي لها فيض المحيط
الذي لثم شفاه الموت الشاحبة ،
ثم هو الآن يضطرب على فم الحياة

* * *

خُذْن القيثارة وتعالين نُغْنِيَنَّ

القانص الشجاع على التلال
الذي فوق سهمه المسحور وسدده إلى فريسته
ثم حمل القرون والأنياب هابطاً إلى الأرض

* * *

خُذْن القيثارة وغنين معي
الفتى الجريء الذي قهر مدائن الجبال ،
وغلب نظائرها في السهول ، تلك التي تلتف كالأفاعي في الرمال ،
وهو بعدُ لما ينازل الأقرام وإنما صارع آلهة ،
بها سَغِبٌ إلى لحومنا وظماً إلى دمائنا .

وأسوة بالصقر الذهبي الأول

لم يتصد لغير النسور ،

فلقد كان له جناحان عاتيان ممتدان ،

فلا يزاحم من هم أهون منه جناحاً

* * *

خُذْن القيثارة وغنين معي

أغنية البحر والشيطان المرحة .

فلقد ماتت الآلهة

وهي لا تزال منطرحة

في جزيرة مهجورة من بحر مهجور .
وها هو ذا من ذبحها يتربعُ على عرشه .
وما كان المقاتل غير شاب يافع
لم يُنبت الربيع له لحيّة كاملة بعدُ
وكان صيف حياته ما يزال غضاً في « حقله »

* * *

خُذْن القيثار و غنّين معي
عن العاصفة تجتاح الغاب ،
وتكسر الغصن اليابس والعسلوج العاري ،
لكنها تدفع بالجذر الحيّ إلى أعمق مما كان
ليستكنّ ناعماً دافئاً على صدر أمه الأرض

* * *

خُذْن القيثار و غنّين معي
أغنية « محبوبنا » التي تحيا أبدا .
لا . . بل دَعْنْ أَيْدِيكُنَّ ساكنةً أيتها الكاهنات الصبّايا
إلى جوار قيثاراتكنّ .
فأنتي لنا أن نتغنّي « به » الآن .
إن همسات أغنيتنا الخافتة لا ترقى إلى « عاصفته »

ولا تقوى على النفاذ خَلَل جلال صمته .
ضعن القيثار جانباً والتففن حلقةً حولي
فإني مرّدة لكنّ كلماته
ومعدّدة لكنّ جلائل أعماله ،
فإن رجّع كلماته لأعمق من أعمق أحاسيسنا .



بنيامين الكاتب « دع الموتى يدفنون موتاهم »

يقال إن عيسى كان لرومه واليهودية عدوًا
غير أنني أقول: إن عيسى لم يكن عدوًا لإنسان ولا لجنس من الأجناس .
ولقد سمعته يقول : « إن الطير في السماء ، والقمم التي تتوج الجبال ، لا
تلقني بالألأفاعي في جحورها المظلمة . دع الموتى يدفنون موتاهم ، وكن أنت
بين الأحياء ، وحلق عاليًا » .
وما كنتُ حوارياً من حواريه ، بل ما كنت غير واحد من هؤلاء الكثيرين
الذين ذهبوا في إثره يتطلعون إلى محياه .
ولقد ألقى على رومه نظرة كما ألقى علينا ، نحن الذين كنا عبيداً لرومه ،
كما يلقي الأب نظرة على أطفاله وهم يلعبون بالدمى ، ينازع بعضهم بعضاً
الدمية الكبرى . وكان في عليائه يضحك في شموخ .
لقد كان أسمى من أن يُعادي دولة أو يعادي جيشاً ، كما كان أسمى من أن
يقوم بثورة .
لقد كان فرداً وحيداً ، وكان لنا موقظاً .
لقد ذرف عنا ما لم نذرف من دموع ، وتبسّم أمام كل ما أبدينا من تمرد .
كان في مكنته أن يولد مع من لم يولدوا بعد ، وأن يأمرهم بأن ينظروا لا
بأعينهم ولكن ببصيرته .
كان عيسى إيداناً بمملكة جديدة على وجه الأرض ، مملكة لن تبيد .
كان إبناً وكان حفيداً لكل من شيد مملكة الروح من ملوك . وما حكم دنيانا
غير هؤلاء من ملوك الروح .

زكا

عن مصير عيسى

إنكم لتصدقون كل ما تسمعون من قول . . . ألا فليكن تصديقكم لغير ما يقال ، فإن صمّت الناس أقرب إلى الصدق منه إلى حديثهم .

وإنكم لتساءلون : أما كان عيسى مستطیعاً أن ینجو من میتته تلك المخزية ، وأن ینقذ حواریه من الاضطهاد ؟

وإني لأجيب : لقد كان في وسعه حقاً أن ینجو لو شاء غیر أنه لم ینشد الأمن ، ولا ألقى بالألحماية قطیعه من ذئاب الليل .

لقد كان يعرف ما قُدر له ، ويعرف ما ينتظر مریدیه الأوفياء في غد .

ولقد سبق فتنبأ بما سيحلّ بكل منهم ، وهو لم یسع إلى حتفه ولكنه تقبل الموت كما يتقبل الفلاح الشتاء وهو یذري الرماد على الحب منتظراً الربيع ثم الحصاد ، وكما يضع البناء الحجر الأعظم في الأساس .

لقد كنّا نقرأ من الجليل ومن منحدرات لبنان ، وكان معلّمنا عيسى یملك أن یعود بنا إلى بلادنا كي نعيش في ظل شبابه في بساتیننا إلى أن تدرکنا الشیخوخة ، وتهمس إلینا بذکریات السنین السالفة .

أكان ثمة ما یقف في طریق أوبته إلى المعابد التي تضمّها قرانا ، حيث غیرنا من الناس یتلون ما للأنبياء ثم یفصحون عما بنفوسهم ؟

أو کم یکن في قدرته أن یقول : إني الآن قاصدٌ قصد الشرق مع الرياح الغربية ، فیصرفنا بقوله هذا والابتسامة على شفّیه ؟

بلى . لقد كان في قدرته أن يقول : « عودوا إلى عشائركم ، فإن الدنيا لم تنهيا لي بعدُ . وسأعود بعد ألف عام . لقنوا أولادكم أن يرقبوا مجيبي . »
لقد كان بوسعه أن يقول هذا إذا شاء .

لكنه كان يدرك أن من يبني المعبدَ غير المرثي عليه أن يبذل نفسه ليكون حجر الزاوية في أساسه ، وأن يصفنا حوله حصي مضمومة إليه .

ولقد كان يدرك أن العصاراة لشجرتة السماوية يجب أن تصعد من جذورها ، فصبّ دمه على تلك الجذور ، ولم ير في هذا تضحية منه بل عدّه غنماً .

إن الموت هو الذي يفصح عن الحياة . ولقد أفصح موت عيسى عن حياته ، ولو أنه أفلت منكم ومن أعدائه لكانت لهم الغلبة في الأرض ، فهو لهذه لم يفلت .

إن الذي يرغب في كل شيء يُعطي كل ما عنده .

أجل ؛ لقد كان في وسع عيسى أن يهرب من أعدائه ويعيش إلى أن يعمر ، لكنه كان يعلم أن الزمن إلى تحوّل ، وكان بوّده أن يغني أغنيته .

ألا دلّوني على رجل تصدى للدنيا في شِكَّتْها ثم لم يبؤ بالهزيمة في اللحظة التي يوشك فيها أن يقهر الزمان ؟

والآن يتساءلون : تُرى من ذبح عيسى : أهم الرومان أم كهنة بيت المقدس ؟

ما ذبحه الرومان ولا الكهنة . لقد وقفت الدنيا بأسرها فوق ذلك التل تكرمه وتمجّده .

يونان بين زنايق الماء

ذات يوم كنت ومن أحبّ نَجْدِف في بحيرة ماؤها عذب ، تُحدق بنا تلال
لبنان .

كنا نتنقل في ظلال أشجار الصفصاف المتهدّلة ، وكانت ظلالها تُغشي ما
حولنا .

وبينما كنت أدفعُ القاربَ مستعينا بمجدافي تناولتُ محبوبتي عودها
وأنشدتُ:

هل من زهرة غير اللوتس عندها خبر الماء والشمس ؟

وهل غير قلب اللوتس عنده خبر السماء والأرض ؟

تطلع أيها الحبيب إلى الزهرة العسجدية وهي تتهادى بين البحر والسماء ،
شأنى وشأنك حين نتهادى يضمنا حب ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد .

ألا فلتضرب أيها الحبيب ،

ولتخلني أغمز أوتاري .

لنمض مع الصفصاف ، ولكن . . . لا لنأى عن زنايق الماء .

هناك في الناصرة يعيش شاعرٌ يحاكي قلبه زهرة اللوتس

ألم بروح المرأة ،

فهو عليمٌ بظمئها الذي ترعرع في المياه .

ويعرف جوعها إلى الشمس ، وإن كانت شفتها شبيعى .
يقولون إنه يسير في مناكب الجليل ،
وأقول : إنه يجذف معنا .
ألا ترى وجهه أيها الحبيب ؟
ألا تراه هناك حيث تلتقي أغصان الصفصاف بصورتها في الماء ،
وأنه يمضي قُدماً كما نمضي ؟
جميلٌ أيها الحبيب أن نتعرف على الحياة في شبابها .
وعذبٌ أن نتعرف على مرحها الصداح .
هلاً كان المجداف دوماً لك ،
وكان لي عودي بأوتاره ،
حيث تتفتح زهرات اللوتس ضاحكة في ضوء الشمس ،
وتغوص غصون الصفصاف في جوف المياه ،
ويتردد صدى صوت الناصريّ على أوتاري ؟
اضرب بمجدافك أيها الحبيب في الماء ،
وخلّني أغمز أوتاري .
إن في الناصرة لشاعراً ،
يعرفنا معاً ، ويحبنا معاً .
اضرب بمجدافك أيها الحبيب في الماء ،
وخلّني أغمز أوتاري .

حنة من بنات بيت صيدا عام ٧٣ تتحدث عن عمّتها

خلّفتنا عمّتنا شابة لتسكن في كوخ يقرب من كرمة أبيها القديمة .
وعاشت وحدها ، يقصد إليها أهل القرى المجاورة في مرضهم فتداويهم
بأعشاب خضراء و جذور وأزهار أبيضتها الشمس .
وكانوا يعدّونها عرّافة ، غير أنها كانت عند غيرهم ساحرة مشعوذة .
ذات يوم قال لي أبي : احملي إلى أختي هذه الأربعة من خبز القمح ،
وهذا الدورق من النبيذ ، وتلك السلّة من الزبيب .
ووضعنا هذا كله فوق ظهر أتان ، ومضيت في الطريق حتى انتهيت إلى
الكرمة وبلغت كوخ عمّتي فسرت بمقدمي .
وبينما نحن جلوس معاً والوقت ندى ، طلع علينا رجل من الطريق حيّا
عمّتي قائلاً : عمي مساء ، ولتحلّ عليك بركة الليل .
عندها نهضت واقفة أمامه في خشية وقالت : عم مساء يا وليّ الأرواح
الخيرة ، وياقاهر الأرواح الشريرة جميعاً .
ونظر إليها الرجل بعينين ملؤهما الحنان ، ثم مضى لقصده .
غير أنني ضحكت بيني وبين نفسي وخلت أن عمّتي بها جنّة ، وإني لأعلم
الآن أنه لم تكن بها جنّة وكنت أنا التي لم تفهم .
ولقد أحسّت ضحكي وإن كان خفياً .

وتكلمت غير غاضبة وقالت : استمعي إلي يا بنيتي مصيخة ، وعي كلماتي في ذاكرتك : إن الرجل الذي مرّ بنا الساعة مرور طيف الطائر المحلّق بين الشمس والأرض سوف يُذلّ القياصرة ويسود إمبراطوريتهم . وسوف يصارع ثور كلدانيا المتوجّج ، وأسد مصر الذي يحمل رأس إنسان ، وسوف يكتب له النصر عليهم ، وسوف يحكم العالم .

أما هذه الأرض التي يدوسها الآن فسوف تصبح هباء ، وأما مدينة بيت المقدس التي تتبوأ مكانها فوق التل شامخة ، فسوف تتصاعد دخاناً تحمله رياح الدمار .

وعندما حدثتني هذا الحديث استحال ضحكي سكوناً وهدأت ، ثم قلت : مَنْ هذا الرجل ؟ ومن أي بلد أتى ؟ ولأية قبيلة يُعزى ؟ وكيف يُقدّر له أن يقهر الملوك العظام ويغلبهم على إمبراطورياتهم ؟

فأجابت : إنه واحد ممن وُلدوا هنا على هذه الأرض ، لكننا كنا نتخيّله فيما نَصبّو إليه منذ بدأ الزمان . إنه يُعزى إلى كل القبائل ولا تملكه قبيلة واحدة .

وسوف تُكتب له الغلبة بالكلمة التي تخرج من فيه ، وباللهيب الذي لروحه .

ثم نهضت واقفة فجأة وكأنها قمة من صخر ، وقالت :
ألا ليت ملائك الرب تغفر لي حين أصرّح فأقول : وسوف يُذبح ، وسوف يطوي الكفنُ شبابه ، وسوف يرقد في سكون في جوار قلب الأرض الصامت وتبكيه عذارى مدينة اليهودية .

ثم رفعت يدها إلى السماء وعادت تتحدث قائلة :
ولكنهم لن يذبحوا منه إلا جسده .

ولسوف ترتفع روحه وتمضي قُدماً تسعى بقربانه من هذه الأرض التي تشهد
مولد الشمس ، إلى الأرض التي تُذبح فيها الشمس مع المغيب .
ولسوف يصبح اسمه الأول بين الناس .

* * *

كانت عمّتي عرّافةً عجوزاً حين ذكرت ذلك كله ، ولم أكن أنا غير فتاة
غريرة . . . حقلًا لم يُحرث ، وحجرًا لم يجد مكانه بعد في الجدار .
غير أن هذا كله الذي رأته في مرآة مخيلتها أصبح اليوم واقعًا أعيشه كل
يوم .

فلقد قام عيسى من بين الموتى ، وقاد الرجال والنساء وبشّر بهم أهل الغرب .
أما المدينة التي أسلمته إلى القضاء فقد أسلمت هي نفسها إلى الفناء .
وقاعة القضاء التي حوكم فيها وأدين ينطق اليوم فيها البوم نادبًا ، ويبكي الليل
بقلبه النديّ على ذلك الرخام المتهدّم .
وإني الآن لعجوزٌ تنوء بحمل السنين ، ولم يعد لي أهل ، وبادت
عشيرتي .

وما رأيته غير مرة ثانية ، بعد يومه ذاك .

وأخرى سمعت صوته ، وكنت على قمة التل وكان هو يتحدث إلى
أصدقائه وأتباعه .

وإني الآن لعجوزٌ وحيدة ، لكنه لا يزال يزورني في أحلامي ، فيطيف بي
في صورة ملاك أبيض له قوادم من ريش ، فيذهب عني وحشة الظلام بنظرته
ويرفعني إلى أحلام أبعد بُعدًا .

وما زلت حقلًا غير محروث وثمره أدركت نضجها تأبى السقوط . وكل ما
أملك هو دفء الشمس ، وذكرى تبقّت لي من هذا الرجل .

* * *

وإني لأدرك أنه لن يكون بين قومي من ينهض ثانية ليكون ملكًا أو نبياً أو
كاهنًا ، تمامًا كما تنبأت عمّتي .

ولسوف نمضي مع مسيل الأنهار ونكون نسيًا منسيًا ، لكن الذين لقوه في
منتصف المجرى سوف يُذكّرون لأنهم لقوه في منتصف المجرى .



منسى محام في بيت المقدس عن عيسى وإيماءاته

نعم . لقد درجتُ على أن أسمعهُ يتكلم ، وكانت الكلمةُ دائماً على شفثيه .
وكنت أكبره رجلاً أكثر من إكباري إياه زعيماً .
وكان يعظني بما لا يطيقه هواي وقد لا يقوى له عقلي .
وما أحببت أن يعظني إنسان .

وكنت مأخوذاً بصوته وإيماءاته لا بموضوع حديثه . لقد سحرني وما
أقنعني ، إذ كان غموضه فوق ما أطيق ، لا ينتهي حديثه إلى عقلي لشدة بُعده
وإبهامه .

ولقد عرفت رجلاً آخرين مثله ، فما كانت لهم أبداً مثابرة ولا ثبات على
مبدأ . وبما يملكون من فصاحة لا بما يملكون من رأى كانوا يأسرون سمعك
وخواطر فكرك ، لكنهم لم يكونوا يبلغون الصميم من قلبك أبداً .

ومن أسف أن أعداءه عارضوه وأصروا على أن يضعوا نهاية لوجوده وما
كان أولاهم ألا يفعلوا . فإني لأرى أن خصومتهم ستزيد من قدره وتحيل من
لينه قوة .

أوكيس غريباً أنك تُكسب الرجل شجاعة إذا عارضته ؟

وأنك حين تُعوق قدميه عن المسير تزوده بجناحين ؟

ولست أدري من هم أعداؤه ، غير أنني على يقين أنهم حين خافوا رجلاً
مأمون الجانب قد أعاروه قوة وجعلوه خطيراً .

يفتاح من القيصرية رجل ضجر بعيسى

إن هذا الرجل الذي يزحم عليكم يومكم ويثقل عليكم ليلكم ممقوت لديّ ،
وإنكم لتشقون على سمعي بأقواله وعلى فكري بأفعاله .
وإني لضيق بكلماته وبكل ما يفعل . يغيظني اسمه نفسه ، واسم موطنه ،
وما أحب أن أسمع عنه المزيد .

لم أنتم جاعلون هذا الرجل نبياً ولم يكن غير ظلّ فحسب ؟
ولم تتصورون كثيب الرمل برجا ؟

ولم تخالون القطرات تتجمع في موقع الحافر بحيرة ؟

أنا لا أستخف بالأصدااء في كهوف الأودية ، ولا بالظلال الممتدة مع
غروب الشمس ، لكنني لن أصغي إلى الغوايات الخادعة التي تضرب في
رؤوسكم ، ولن أحفل بالهواجس التي تنعكس في عيونكم .

أية كلمة نطق بها عيسى لم يقلها هليل ؟

وأية حكمة كشف عنها لم تكن لغمالثيل ؟

وأين لكتته من صوت فيلون ؟ (*)

(*) الرابا هليل [أي سبّحوا الله بالعبرية] فيلسوف يهودي في القرن الأول الميلادي ،
وغمالثيل [أي مكافأة الله بالعبرية] كان حاخاما يهوديا ورئيسا لمجمع السنهدريم في
القرن الأول الميلادي ، وفيلون فيلسوف يوناني من أصل يهودي ومن مواليد الإسكندرية
في القرن الأول الميلادي .

وأية صنوج دقها لم تُدقّ قبل أن يولد بزمان طويل ؟

إني لأصيحخ إلى الأصداء تنبعث من الكهوف في الأودية الساكنة ، وإني لأتطلع إلى الظلال الممتدة مع غروب الشمس ، ولكني لا أسيغ أن يردّد قلب هذا الرجل صوت قلب آخر ، ولا أن يدّعي لنفسه النبوة من هو ظل للعارفين .

ماذا بقي له من قول بعد ما تكلم إشعيا ؟

ومن يملك أن يغني بعد داوود ؟

وهل لحكمة أن تُبعث من جديد بعد أن طوى الموت سليمان وآبائه الأولين ؟

ثم ماذا عن أنبيائنا الذين كانت ألسنتهم سيوفاً مسلولة ، وشفاههم لهباً متقدماً ؟

أتراهم خلّفوا وراءهم عوداً من قش لهذا الجليليّ جامع لقاطة الحصاد ؟

ثم أتراهم تركوا ثمرة سقطت لهذا المتسوّل الوافد من الأقطار الشمالية ؟

ما بقي له إلا أن يأكل الرغيف الذي خبزه لنا أسلافنا منذ حين قريب ، وأن يشرب النبيذ الذي هصرت أقدامهم المقدسة أعنابه الأزلية منذ أمد غير بعيد .

إنها ليد صانع الفخّار هي التي أمجدّ ، لا يد شاري الخزف .

وإني لأكبر الذين يجلسون إلى النّول فوق إكباري للجلف الخشن الذي يرتدي الثياب .

ومن كان عيسى الناصري هذا ، وماذا أسلف ؟

كان رجلاً لم يبلغ أن يعيش بما يُمليه عليه فكره . لذا طواه النسيان وكانت تلك نهايته .

وإني لأسألكم ألا تُثقلوا على أذني بكلماته ولا أفعاله ، فإن قلبي مضطرب بحديث الأنبياء القدامى ، وحسبي هذا .

يُوحنا الحبيب حين امتد به العمر عن يسوع الكلمة الأولى

تودون لو حدثتكم عن عيسى ، ولكن أنى لي أن أستدرج أغنية الوجد الكوني لتحلّ في قصبة جوفاء ؟

لقد كان عيسى مدرّكاً لربه في كل آية من آيات اليوم ، كان يراه في الغمام وفي ظلّ الغمام السّابح فوق الأرض ، كما كان يرى وجهه تعكسه صفحة الغدران الساكنة ، والأثر العافي لأقدامه على الرمال . وكم أغمض عينيه ليرنو إلى عين الله المقدسة .

كان الليل يتحدث إليه بصوت الرب .

وفي خلوته كان يسمع ملاك ربه يهتف به .

وحين يسترخي لينام كان يسمع همس السموات في أحلامه

وفي أغلب أحواله كان سعيداً برفقتنا ، ويدعونا إخوته .

فانظر إلى مَنْ كان «الكلمة» الأولى يدعوننا إخوة ، وما كنا غير مقاطع من كلمات لم يُنسب بها إلاّ أمس .

وتسألني لم أدعوه الكلمة الأولى ؟

استمع إليّ أجيبك .

في البدء تجلّى الله في الفضاء ، ومن هذا التجلّي الذي لا تضمّه حدود خلقت الأرض ، ومنها خلقت الفصول .

ثم تجلّى الله ثانية ، ففاضت عنه الحياة ، وبرّح الشوق بالحياة ، فجعلت
تطلب الأعالي والأغوار تودّ لو مدّها لها في الحياة .

عندئذ نطق الرّب ، وكانت كلماته الإنسان ، وكان الإنسان روحاً من روح الله .
وعندما نطق الرّب ما نطق ، كان المسيح كلمته الأولى ، وحقّت كلمة
الرّب . وعندما جاء عيسى الناصري إلى الدنيا ألقيت هذه الكلمة الأولى إلينا
واستحال الصوت لحمًا ودمًا .

وكان عيسى «المسيح» كلمة الله الأولى التي ألقاها إلى الإنسان ، مثله كمثل
شجرة من تفاح في بستان نمت وازدهرت قبل غيرها من الأشجار بيوم ، وكان
ذلك اليوم في جنة الله دهرًا .

ونحن جميعًا - بنين وبنات - من العليّ المتعال ، ولكن هذا المسوح بالزيت
المقدس كان أول ما كان عنه ، جاء في صورة عيسى الناصري يسعى بيننا
ونراه .

أقول لكم هذا كله لتعوه لا بعقولكم فحسب بل بأرواحكم .

فإن العقول تزن وتقيس ، وليس غير الأرواح تبلغ كنه الحياة وتنطوي على
سرّها ، كما أن بذرة الحياة لا تموت .

وقد تهبّ الرياح ثم تسكن ، وقد يهيج البحر ثم يفتت ، لكن قلب الحياة
مستقر مكين والنجم الذي يسطع فيه باق أبداً .



حديث متوس اليوميّ إلى رجل من اليونان عن آلهة الساميين

كان اليهود ، كجيرانهم من الفينيقيين والعرب لا يدعون أربابهم يستقرون لحظة ناعمين .

فكانوا كثيري التفكير في معبودهم ، مُسرفين في ملاحظة صلاة بعضهم بعضا وطقوس عبادتهم وما يقدمون من قربان .

وبينما نبني - نحن الرومانيين - لآلهتنا معابد من رخام ، إذا هؤلاء الناس يناقشون طبيعة أربابهم . ونحن ، حين نظرب ، نغني ونرقص حول مذابح ميركوريس وچونو ومارس وڤينوس ، أما هم فحين يطربون يلبسون رث الثياب وينثرون فوق رؤوسهم الرماد ، بل تراهم يندبون اليوم الذي وهبوا فيه الحياة .

وعيسى ، هذا الإنسان الذي عرف الله بأنه مصدر البهجة والسرور ، قد عذّبوه ثم أسلموه إلى الموت .

إن هؤلاء الناس لا يرتاحون لربّ سعيد ، ولا يعرفون غير أرباب تنبثق من آلامهم .

وكذلك أصدقاء عيسى وحواريوه ، هؤلاء الذين عرفوا طربه وسمعوا ضحكاته قد اتخذوا لأحزانه صورة ، وعبدوا تلك الصورة .

وهم بهذه العبادة لا يرتقون إلى إلههم ، بل يهبطون بإلههم إلى مرتبتهم

هم .

على أنني أعتقد أن هذا الفيلسوف عيسى . وما الفرق بينه وبين سقراط .
- سوف يكون له السلطان على قومه ، وقد يكون على أقوام آخرين .
إذ نحن كلنا أبناء أحزان ونسل صغار الشكوك .
وإذا ما قال لنا إنسان : ليكن السرور سبيلنا إلى الله ، لا نملك إلا أن
إليه .

وعجيب بعد هذا أن تتشكل آلام هذا الرجل فتصبح طقوساً .
إن هؤلاء الناس يرومون الوقوع على أدونيس آخر ، هذا الرب الذي
في الغاب ، وأن يحتفلوا بذبحه . ومن أسف ، أنهم لا يلتفتون إلى ضح
ولكن ، لنعترف كما يعترف الروماني لليوناني : أترانا نحن أنفسنا
إلى ضحكات سقراط في شوارع أثينا ؟
أم أترانا ننسى كأس السم التي سقىها سقراط ، حتى ونحن في
ديونيسوس ؟

أما انك أباًؤنا يقفون على منعرجات الشوارع ، ليتحدثوا عن مت
وليقتضوا لحظة سعيدة يتذكرون فيها المصير المؤلم ، مصير جميع
العظام ؟



بيلاطس البنطي عن العقائد والشعائر الشرقية

كثيراً ما تحدّثت عنه زوجتي قبل أن يمثّلوا به بين يدي ، ولكني لم أكن ألقى
بالا .

وكانت زوجتي من الحالمات ، أسلمت نفسها للعبادات والشعائر الشرقية ،
شأنها في ذلك شأن غيرها من الرومانيات ممن هنّ في قدرها .

ولقد استبان لي أن هذه العبادات خطر يهدّد الإمبراطورية ، وأنها حين تجد
سبيلها إلى قلوب نساتنا تبذر فيها بذور الدمار .

ولقد حانت نهاية مصر عندما حمل إليها هكسوس بلاد العرب عقيدة الإله
الواحد من صحرائهم .

وغلبت اليونان وخرت صريعة عندما حلّت بها عشطروط وعذراواتها
السبع من شواطئ سورية .

أما عن عيسى ، فما رأيت الرجل قط قبل أن يسلموه إليّ آثماً وعدوّاً لقومه
وعدوّاً لرومه .

ولقد جاءوا به إلى ساحة القضاء وذراعاه مشدودتان إلى جسمه بالحبال .
وكنت جالسا على المنصة ، فمشى إليّ بخطوات واسعة ثابتة ووقف منتصباً
وقد رفع رأسه عالياً .

ولم أستطع أن أسبر غوراً ما حلّ بي في تلك اللحظة ، وفجأة وجدّثني راغباً
ولكن غير مختار في أن أنهض وأنزل عن منصتي لأرتمي بين يديه .

لقد أحسستُ كأن قيصر دخل القاعة ، لقد كان ذا عظمة تفوق عظمة رومة
نفسها .

غير أن هذا الإحساس لم يدم غير برهة ، ثم رأيتُه مجرد رجل متهم بخيانة
قومه ، ورأيتني حاكمه وقاضيه .

وسألته ، غير أنه لم يشأ أن يجيب . وما زاد على أن نظر إليّ نظرة ملؤها
الأسى ، وكأنما هو نفسه حاكمي وقاضيّ .

ثم تعالت صيحات الناس من الخارج . لكنه ظل صامتًا ، وطفق يرمقني
والشفقة والرحمة في عينيه .

وخرجت أهبط درجات القصر . وحين رأني الناس أمسكوا عن الصياح ،
فقلت : ماذا أنتم فاعلون بهذا الرجل ؟

صاحوا وكأنهم يُصدرون عن حلق واحد : نريد له أن يُصلب . إنه لعدوٌّ
لنا ، عدوٌّ لرومة .

وصاح بعضهم : ألم يقل إنه يريد أن يخرّب الهيكل ؟

ألم يُعلن أن المُلْك له ؟

لن يكون لنا ملك إلا قيصر .

وهنا تركتهم ورجعت إلى ساحة القضاء . رأيتُه لا يزال واقفًا هناك وحده
ورأسه ما برح شامخًا .

إذ ذاك ذكرت ما قرأت من قول لفيلسوف يوناني : أقوى الرجال مَنْ كان وحيدًا .

وفي تلك اللحظة كان الناصريّ أعظم من قومه شأنًا .

وما شعرت بالرافة تجاهه ، فقد تجاوز رأفتي .

ثم سأله : أنت ملك اليهود ؟

فما نطق بكلمة .

ثم سأله ثانية : ألم تقل : « إنك ملك على اليهود ؟ »

فتطلع إليّ ، ثم أجاب في صوت هادئ : « أنت الذي ناديت بي ملكًا ، ولقد أكون لهذه الغاية وكُلت ، ولهذا السبب جئت لأكون على الحق شاهداً » .

أرأيت إلى رجلٍ يتحدث عن الحق في لحظة كهذه !

وصحتُ ضجرًا أسائل نفسي وأسأله : ترى ما هو الحق ؟ وماذا يُغني الحق عن البريء وقد تناولته يد الجلاد ؟

عندها قال عيسى في عزم « لا حكم لأحد في الدنيا إلا بالروح والحق » .

وسأله : أترك نفحة من الروح ؟

فأجاب : « وكذلك أنت ، غير أنك لا تدري » .

ألا ما جدوى الروح ، وأي غناء في الحق عندما نسوق بريئًا إلى الموت ؟ أفعلُ هذا من أجل الدولة ، وهم يفعلونه مدفوعين بالغيرة على شعائرهم القديمة . وما في قدرة رجل من الرجال ، ولا جيل من الناس ، أو مملكة في الأرض ، على الوقوف دون الحق وهو في سبيله إلى تحقيق ذاته .

وقلت له ثانية : هل أنت لليهود ملك ؟

فأجاب : « أنت الذي تقول هذا . لقد قهرتُ الدنيا قبل هذه الساعة » .

في كل ما قال ما نشزت سوى قولةٍ واحدة ، إذ إن رومة وحدها قهرت العالم .

غير أن أصوات الناس تعالت ثانية ، وتضخمت الجلبة ، فنزلتُ من مقعدي وقلت له : اتبعني .

وظهرتُ ثانية على درجات القصر ، ووقف هو هناك إلى جانبي .

وعندما رآه الناس كان لهم صخب كقصف الرعد ، وفي صخبهم لم أسمع شيئاً غير : اصلبوه ، اصلبوه .

عندها ردّدتُهُ إلى الكهنة الذين أسلموه إليّ وقلت لهم : اصنعوا بهذا الرجل البارّ ما شئتم . ولكم أن تستصبحوا جنداً من رومة لحراسته .

ثم أخذوه ، وقضيتُ بأن يكتب على الصليب فوق رأسه : « عيسى الناصري ملك اليهود » . وكان أجدي لي أن أقول « عيسى الناصري ، ملك » .

ولقد جرّدوا الرجل من ثيابه وأوسعوه ضرباً ثم صلبوه .

وقد كان بوسعي أن أخلّصه ، ولكن نجاته كانت خليقة أن تُفضي إلى ثورة .

وإنه لمن الحكمة دائماً لمن يحكم ولاية رومانية أن يغض الطرف عما يساور الأمة المغلوبة من شواغل الدين .

وإني لمؤمن حتى ساعتى هذه أن هذا الرجل كان أكبر من داعية للفتنة . وما قضيتُ به لم يكن ما أردت ، بل كان من أجل رومة .

ولم يمض وقت طويل حتى تركنا سورية . ومنذ ذلك الوقت أصبحت زوجتي حليفة همّ ، وإني لأراها أحياناً في هذه الحديقة والفجيرة في وجهها .

ولقد أخبرت أنها تتحدّث كثيراً عن عيسى إلى غيرها من نساء رومه .

فيا عجباً للرجل الذي قضيتُ بموته يؤوب من عالم الأشباح ليدخل عليّ

بيتي .

ولانى لأسأل نفسي مرة ومرة : ما هو الحق ، وما هو غير الحق ؟ أترى
الناصرى قد أخذ يغزوني مع ساعات الليل الساكنة ؟

لا . . إن هذا لن يكون .

وحتمٌ على رومة أن تقضي على ما يُلمّ بزوجاتنا من أضغاث أحلام .



برثولماوس في إفسسوس عن الأرقاء والمنبوذين



إن أعداء عيسى ليقولون إنه جهر بدعوته للأرقاء والمنبوذين
يخرجهم على مواليهم .

وقالوا أيضاً : إذا كان عيسى وضع الأصل فقد استع
شاكلته ، وهو على ذلك حاول أن يستر أصله .

ولكن تعالوا ننظر بعين الروية إلى أتباع عيسى وإليه ، زعيماً
فهو بادئ ذي بدء اختار نفرًا قليلاً من بلاد الشمال رفقاء له
لهم بسطة في الجسم وقوة في الروح ، ولقد ملكوا من الشجع
الأربعين سنة الخالية ما واجهوا به الموت في إرادة واستهانة بالأخذ
أيدور بخلدك أن هؤلاء الرجال كانوا أرقاء أو كانوا منبوذين
وهل يدور بخلدك أن هؤلاء الرجال والنساء ذوي المجد الر
وفي أرمينيا وفي أثينا وفي رومة كان من اليسير أن يؤخذوا
للأرقاء؟

لا . لم يكن الناصري مع الأجراء حرباً على السادة ، ك
السادة حرباً على الأجراء . ما ناصر رجلاً على رجل .

لقد كان رجلاً فوق الرجال ، وتلك الدفقات التي سرت في
زاخرة بالألم والقوة في آن معاً .

وإذا كان النبيل يكمن في حماية الغير ومناصرتة ، فلقد ك
جميعاً .



وإذا كانت الحرية حليفة الفكر والقول والهمة ، فلقد كان على رأس الأحرار جميعاً .

وإذا كان علو المَختد صنو الشموخ الذي لا يذل إلا للمحبة وللعزلة التي هي أبدأ رقة ورحمة ، فلقد كان من بين الناس جميعاً أعلاهم مَختداً .

لا تنسوا أن القويَّ العَجَل وحده يحرز قصب السبق ويكُلل بالفار . ولقد توج عيسى هؤلاء الذين أحبوه ، كما توجه أعداؤه وإن كانوا لا يعلمون .

وهو إلى اليوم لا يزال تُوجُّه كل يوم كاهنات أرتميس في المعارج المكنونة من معابدهن .



مُتَى

عن عيسى عند جدار السجن

ذات مساء مرّ عيسى بسجن في برج داوود . وكنا نسير خلفه فرأيناه تلبّث فجأة ملصقًا خدّه بجدار السجن وأخذ يقول :

« إخوتي منذ الأزل ، إن قلبي ليخفق مع قلوبكم خلف الأسوار ، لشدّ ما أتمنى أن تكونوا أحرارًا في ظل حرّيتي وأن تسعوا معي ومع صحّبي .

أنتم سجناء ولكنكم لستم وحدكم . فما أكثر السجناء الذين يسعون في فضاء الأرض لم ينل أجنحتهم مقصّ ، ولكنهم أشبه بالطاووس يصفقون بريشهم ولا يستطيعون التحليق .

إخوتي في يومي الثاني ، سوف أزوركم وشيكًا في زنازينكم وأتطامن بكتفي لتحمل أثقالكم ، فليس ثمة فرق بين البريء والمذنب ، هما كعظمتي الزند أبدًا لا تنفصلان .

إخوة هذا اليوم الذي هو يومي ، لقد سبحتم ضد مجرى تفكيرهم ، فأمسكوا بكم .

وإنهم ليقولون إنني أنا الآخر أصبح ضد ما يريدون . ولعلي الحق بكم قريبًا ، خارجًا على القانون مع خارجين على القانون .

إخوة يوم لَمَّا يولد بعد . سوف تنهار هذه الجدران ، ومن هذه الحجارة سوف تقوم معالم أخرى على يد ذلك الذي مطرقته النور وإزميله الريح ، وسوف تقفون أحرارًا تنعمون بحرية يومي الجديد .

بهذا تكلم عيسى ثم مضى قُدّمًا ويداه فوق جدران السجن إلى أن جاوز برج داوود .

أندراوس عن الساقطات

إن مرارة الموت لأهون من مرارة العيش دون عيسى .
خرست الأيام وسكنت حركتها حين أسكته القضاء ، ولم يبق غير الصدى
تحمله ذاكرتي ، يردد كلماته ولا يردد صوته .

ولقد سمعته مرة يقول : « أرخوا لشوقكم العنان يقدكم إلى الحقول .
ولتجلسوا في ظلال الزنابق فستسمعونها تشدو في ضوء الشمس ، لا تحوك
من الأقمشة حُلا ، ولا تقيم من الخشب أو الحجارة مأوى ، وهي على ذلك
طروب تشدو .

إن الذي يعمل أثناء الليل يفي لها بما تحتاج ، وإن ندى نعمته لعلى ورفات
أزهارها .

أولستم أنتم الآخرون في رعاية من لا يني أبداً ولا يستريح .

كما سمعته مرة يقول :

« لقد أحصى الله الطير في السماء وعدّها كما عدّ شعرات رؤوسكم . ما
من طير يسقط عند أقدام الرامي ، وما من شعرة في رؤوسكم تستحيل شهباء
أو تسقط في مدارج العمر ، إلا بإرادته » .

وقال مرة أخرى :

« لقد استمعت إليكم في خلجات قلوبكم تقولون : سيكون ربنا - نحن
أبناء إبراهيم - أبر بنا منه بأولئك الذين لم يعرفوه منذ البدء .

لكني أقول لكم : إن ربّ الكرمة الذي يدعو أجيراً مع الصباح للحصد ،
ثم يدعو غيره مع مغيب الشمس ويُجزّي الأخير أجرَ الأول ، هو في الحق من
العادلين . ألم يعط من كيسه هو ويارادته ؟

وكذلك سيفتح الربّ باب داره للطارقين من غير أبناء اليهود ، كما يفتحه
لكم حين تطرقون ، لأن أذنه تميل إلى اللحن الجديد مشوقة بقدر ما يشوقها
سماع أغنية طال تردادها ، بل يخصّ قلبه اللحن الجديد بالترحيب إذ هو
أحدث أوتار قلبه .

وسمعتة مرة أخرى يقول : « اذكروا هذا : إن السارق رجل قد أعوزَ ، وإن
الكاذب رجل قد فُزِعَ . وكما يقع اللص في شرك حارسكم بالليل ، كذلك
يقع في شرك ضلاله هو . بودّي لو رثيتم له في الحالين .

قد يسعى المخطئون إلى دوركم . فلتحرصوا على أن تفتحوا لهم الأبواب
وأن تأذنوا لهم بالجلوس إلى موائدكم . فإن لم تلقوهم فلن تكونوا أبداً أبرياء
مما قد اقترفوا .

وتبعته يوماً إلى سوق بيت المقدس كما تبعه آخرون ، فحدثنا أحدوثة الابن
الضال ، وأحدوثة ذلك التاجر الذي باع كل ما يملك عله يشتري لؤلؤة . وفيما
هو يتحدث ساق الفريسيون وسط الجمع امرأة ادّعت أنها ساقطة ،
وقصدوا إلى عيسى قائلين له : لقد حثت بعهد زوجها ، وقد أمسكوا بها
ساعة الإثم .

فتطلّع إليها عيسى ووضع يده على جبينها ، ثم حملق في عينيها .

وبعد حين انقلب إلى مَنْ جاءوا بها إليه ينظر إليهم طويلاً ، وانحنى إلى
الأرض وأخذ يكتب عليها بأصابعه .

كتب أسماءهم رجلا رجلا ، وإلى جانب أسمائهم كتب الخطيئة التي
اقترفها كل منهم .

و حين أخذ يكتب تسللوا خارجين يجللهم الخزي . وقبل أن يفرغ من كتابته
لم يبق بين يديه غيرنا وغير تلك المرأة .

ثم حملق في عينيها ثانية وقال : لقد فاض بك الحب على حين أن من
ساقوك إلى هنا لم يذوقوا من الحب إلا النذر اليسير . إنهم جاءوا بك لتكوني
شركا لصيدي . والآن فلتمضي في سلام . ما من أحد منهم مَلَكَ أن يبقى هنا
فيديك . وإذا ما بدا لك أن تكوني فطنة كما أنت مُحبة فاسعي إليّ ، إذ ليس
لابن الإنسان أن يُدينك .

وتملكتني عندها حيرةٌ ، لا أدري أقال هذا لها لأنه لم يكن هو نفسه مبراً من
الخطيئة ؟

ولكنني منذ ذلك اليوم تأملت طويلا . . . ولقد أدركت الآن أن القلب
الطاهر وحده هو الذي يصبر على الظمأ الذي يقود غيره إلى راكد الماء ، وأن ذا
القدم المظمئة وحده يمدّ يداً لمن يتعثّر .

وثانية وثالثة أقول : إن مرارة الموت لأخفّ من مرارة العيش دون
عيسى .



رجل غني عن التملك

كان يذُكر الأغنياء بسوء ، وذات يوم سأله قائلاً : سيدي : ماذا أنا صانع لتبلغ النفس طمانيتها ؟ فأمرني أن أنزل عما أملك للفقراء وأن أكون له رفيقاً . وما كان يملك شيئاً فيعرف ما في التملك من أمن وحرية ، وما يصحبه من عزة ووقار .

وكان لي في بيتي من الأرقاء والخدم أربعون ومائة ، يعمل بعضهم في بساتيني وكرومي ، ويبحر بعضهم بسفني إلى الجزر البعيدة .

تُرى ماذا كان يحلُّ بأرقائي وخدمي وزوجاتهم وأولادهم لو كنت ألقيت بالألما قال ونزلت عن أملاكي للفقراء ؟

كانوا هم الآخرون سيُصَّبَحون من السائلين على أبواب المدينة أو في رواق الهيكل .

لا . إن ذلك الرجل الطيب لم يكن يدرك كُنْه التملك ، فلقد عاش هو وأتباعه على عطايا الآخرين ، فظن الناس كلهم قادرين على أن يعيشوا عيشته .

وإليك ما هو متناقض مُبْهَم ، بل يكاد يكون أحجية : أحتمُّ على الموسرين أن يخلعوا على المحتاجين ثرواتهم ؟ أينبغي للمحتاجين أن يشربوا كأس الغني ويأكلوا رغيفه من قبل أن يدعوهم إلى طعامه ؟

وهل لزام على صاحب القصر أن يكون مضيفاً لتزلائه من قبل أن يقيم نفسه سيداً على أرضه ؟

إن النملة التي تخزن الطعام لشتائها لأجكم من الجندب الذي يغني يوماً
ويجوع يوماً .

وفي السبت الماضي قال تلميذ من تلاميذه في ساحة السوق : على عتبة
السماء حيث يحقّ لعيسى أن يخلف نعليه لن نجد إنساناً ما حقيقاً بأن يوسد
جبهته .

غير أنني أتساءل : على عتبة بيت من كان ذلك الصعلوك الأمين جديراً بأن
يخلف نعليه ؟

إنه هو نفسه لم يملك قط بيتاً ولا عتبة ، وكثيراً ما سعى غير متعل !



يوحنا في جزيرة بطمس عن عيسى الرحيم

سأحدثكم عنه للمرة الثانية .

لقد وهبني الله لساناً وشفقتين متحرقتين غير أنه لم يمنحني البيان ، وغير جدير أنا بالكلمة الكاملة ، ولكنني ساعد ما في قلبي يحرك شفتي .

لقد أحبني عيسى ، وما عرفتُ لذلك سبباً .

ولقد أحببته لأنه سما بروحي إلى ذرى لا يبلغها قدرى ، وهبط بها إلى أعماق لا يدركها علمي .

والحب سرٌّ مقدس .

وهو للذين يحبون يظل أبداً لا يحتويه لفظ ، وللذين لا يحبون قد لا يعدو دعاية مرة .

ولقد دعاني عيسى إليه ودعا معي أخي حينما كنا نعمل في الحقل . وكنت عندها صغيراً لم يطرق أذني غير همس الفجر ، وكان صوته ورجع صوته نهاية حياة الكد ، وبدءاً لحياة الوجدان .

ولم يبق لي عندئذ غير أن أسعى في ضوء الشمس وأقيم عابداً جمال الساعة .

تُرى ، أطاف بك جلالٌ يُشفقُ من شدة رقته أن يكون جليلاً ، وجمالٌ فاض بهاء فما بدا جميلاً ؟

تُرى أيكن أن تسمع في أحلامك صوتاً يستحي من نشوته؟

لقد دعاني فتبعته .

وفي تلك الأمسية رجعت إلى بيت أبي لأحضر معطفًا لي آخر، وقلت
لأمي: إن عيسى الناصري يريدني على أن أصحبه . فقالت : خذ سبيله يا بني
لتكون كأخيك حقًا .

وكنت له صاحبًا . يجذبني إليه شذاه ويهيمن عليّ . . ولكن لخلاصي .
والحب مضيفٌ كريم لضيوفه ، على أن بيته لمن لم يُدع إليه سرابٌ وزيف .

* * *

والآن تريدونني أن أشرح لكم معجزات عيسى .
نحن جميعاً الآية المعجزة للحظة التي نعيشها . أما سيّدنا ومعلّمنا فهو من
هذه اللحظة مركزها .

وما كان راغبًا في أن تُعرف له آياته .

ولقد سمعته يقول للمُقعّد : انهض وعُدْ إلى بيتك ولا تَقُلْ للكاهن إنني قد
أبرأتك .

على أن عيسى لم يكن يُعنى بالمُقعّد ، بل كان همه في القوى والصحيح .
كان عقله ينشدُ عقول الآخرين ويتملكها ، كما كانت روحه المحكمة الوافية
تسكن أرواحًا أخرى وترعاها . وهو حين يفعل هذا كانت روحه تُشكّل هذه
العقول وتلك الأرواح .

وكان هذا يبدو معجزًا ، ولكنه على سيّدنا ومعلّمنا كان يسيرًا يُسر أنفاس
النسيم التي ننشقها كل يوم .

* * *

والآن خلّوا بيني وبين الحديث عن أشياء أخرى .

ذات يوم بينما كنت وإياه وحيديين نمشي في الحقل وكنا نشعر بالجوع ،
انتهينا إلى شجرة من شجر التفاح برّية ولم يكن عليها غير تفاحتين تدلّتا من
غصن .

فأمسك جذع الشجرة بيده وهزّه ، فسقطت التفاحتان على الأرض .
فالتقطهما معاً وأعطاني إحداهما وأمسك الأخرى بيده . وإذ كنت جائعاً أكلتُ
التفاحة ، أكلتها عَجلاً .

ثم نظرت إليه فرأيتَه لا يزال ممسكاً التفاحة الأخرى بيده . . .

هنالك أعطاني إياها وهو يقول : لتأكل هذه أيضاً .

فأخذت التفاحة ، ومع هذا الجوع الذي لا يعرف الحياء أكلتها .

وحينما عدنا نمشي تطلّعتُ إلى وجهه .

لكن أنّى لي أن أخبرك بما رأيت ؟

كان ليلاً تشتعل الشموع في فضائه ،

وحلماً لا تبلغ الروح مداه .

وكان ظهيرة أخلد فيها الرعاة إلى الدّعة سعداء بقطعانهم ترعى .

وكان أصيلاً ، وكان سكيناً ، وكان أوبة إلى الدّيار ،

ثم كان نوماً ، وكان حلماً .

كل هذا تمثّلتُ في وجهه .

لقد أعطاني التفاحتين ، وكنت أعرف أن ما به من جوع مثل الذي بي .

غير أنني أعلم الآن أنه حين أعطاني إياهما كان قانعاً ، فقد أكل هو من فاكهة
أخرى من شجرة أخرى .

وبودي لو زدتك حديثاً عنه ولكن أتى لي ، فعندما يجلب الحب يقلُّ القول .
وعندما تعيا الذاكرة بما تحمل تخلد إلى الصمت العميق .





بطرس عن الجار

وفي كفر نحوم تحدّث سيّدي ومعلّمي مرة فقال :
« جارك نفسٌ لك أخرى تسكن خلف جدار ، وحين تتعارف النفوس تنهار
هذه الجدران الفاصلة جميعاً .

وما تدري لعل جارك نفسك الخيرة تحلّ في بدنٍ آخر .
فليكن حبك له من حبك نفسك .

إنه هو الآخر صورة من العليّ القدير الذي لا تدركه .
جارك حقل يخطر فيه ربيع آمالك في حُلله الخضراء ، ويهجع فيه شتاء
عوزك حالما بالمرتفعات تكسو الثلوج قممها .
جارك مرآة فيها ترى محياك وقد كسّته جمالا فرحة لم تعرفها أنت نفسك ،
وأسى لم تشارك فيه .

إني لأريد لك أن تحب جارك كما أحببتك .

عندها سألته قائلاً : وكيف لي أن أحب جاراً لا يحبني ، يطمع في مالي
ويود لو سلّمني ما أملك ؟

فأجاب : « عندما تحرث ويبذر أجيرك البذر من خلفك ، أترك متلبثاً لتنظر
ما وراءك ، أو تاركاً محراثك لتهيج عصفوراً ينال النزر اليسير من بذورك ؟
إن تفعل فأنت غير جدير بكنوز حصادك » .

وعندما قال عيسى هذا تولّاني خجل وغشيني صمت ، ولكنني لم
أفزع . . . لأنه ابتسم لي .

إسكافيّ من أورشليم رأي محايد

ما أحببته ولكني لم أبغضه قط .
ولقد أصغيت إليه لا لأعي كلماته ، ولكن لأستمع إلى جرس صوته ، فقد
كان صوته يستخفني .
وكان كل الذي قال يعزّ على فهمي ، لكن موسيقاه كانت جليّة في أذني .
وفي الحق لولا ما قاله لي الآخرون عن تعاليمه ما قدّر لي أن أعرف أمشايحاً
كان لليهود أم حرباً عليهم .





سُوسنة الناصريّة... جارة لمريم عن طفولة عيسى وشبابه



عرفتُ مريمُ أم عيسى من قبل أن تصبح زوجة ليوسف النجار ، وقبل أن أتزوج أنا الأخرى .

وفي تلك الأيام كانت مريم ترى رؤى وتسمع أصواتاً وتتحدث عن رسل للسماء يلمّون بها في أحلامها .

وكان أهل الناصرة معنيين بها ، يراقبونها في غدوها ورواحها ويتطلعون إليها بعيون رقيقة ، إذ كان في جبينها شمم وفي خطوها الفسيح مهابة .
وكان نفرٌ يقول : إن بها مسّاً إذ لم تكن تُعنى إلا ببدواتها .

وكنت إخالها عجوزاً على حين كانت شابة ، إذ كان في يُنعها جفاف الحصاد ، ومع ربيعها ناضج الثمر .

لقد وُلدت بيننا وشبّت ولكنها كانت كنازحة من بلاد الشمال .

وكانت عيناها تحملان دوماً دهشة من لم يالف بعدُ وجوهنا . وكانت متعالية تعالي مريم النبية أخت هارون التي خرجت بإخوتها من وادي النيل إلى الفيافي .

ثم زُقت مريم إلى يوسف النجار .

* * *

وحينما حملت مريم بعيسى كانت تسعى بين التلال وتعود مع المساء ، تفيض عيناها جمالا وأسى .

وعندما وُكِدَ عيسى نُبِّئْتُ أن مريم قالت لأمها : ما أنا إلا شجرة لم تُشَدَّبْ
بعدُ ، فانظري أنت في هذه الثمرة .

ولقد سمعتُ قولها هذا مارتا القابلة .

وزرتها بعد أيام ثلاثة فرأيت في عينيها عجبًا ، ورأيت صدرها يعلو
ويهبط ، وذراعها تحيط بوليدها البكر إحاطة الصدفة باللؤلؤة .

وكنا كلنا نحب وليد مريم ونرعاه ، فلقد بعث وجوده فينا الدفء ، وكانت
تساير نبضات قلبه خطوات الحياة .

وكرت الفصول وأصبح الطفل صبيًا كثير الضحك قليل التجوال . وما كان
أحد منا يعلم ماذا يدور في رأسه ، إذ كان يبدو لنا دومًا أنه ليس من عشيرتنا .
وما لأمه أحد قط على ما كان فيه من جرأة ومخاطرة .

وقد كان يبادئ الأطفال الآخرين باللعب وما لعبوا هم معه .

وذات يوم عندما كان في الثانية عشرة من عمره أخذ بيدي رجل أعمى وعبر
به مسيل ماء حتى بلغه مأمنه من الطريق العام .

وسأله الرجل الأعمى مُقرًا بفضله : أيها الصبي الصغير ، مَنْ تكون ؟

فأجاب : لستُ هذا الصبي الصغير ، إنني أنا عيسى .

وقال الأعمى : ومن أبوك ؟

فأجاب : إلى الله أعزى .

فضحك الرجل الأعمى وقال : نعم ما تقول يا بني الصغير . ولكن مَنْ
تكون أمك ؟

فأجال عيسى : لست لك ذلك الابن الصغير ، وإن أمي لهي الأرض .

فقال الرجل الأعمى : إذن فتدبر ، لقد قادني ابن للرب والأرض عبّر
المجرى .

فأجاب عيسى : وسوف أقودك حيثما تذهب ، وسوف تلازم عيني
قدميك .

* * *

ثم شبّ كما تشبّ النخلة العريقة في حديقتنا .
وعندما بلغ التاسعة عشرة كان وسيماً وسامة الأيل . وكانت عيناه في صفاء
الشهد تفيضان بدهش الأيام ، وفي فمه كان ظماً قطيع الصحراء إلى البحيرة .
وكان يقطع الحقول وحيداً ، وإن عيوننا وعيون العذارى في الناصرة
لتلاحقه . ولكننا كنا معه حيّات .

والحب أبدأ على استحياء من الجمال ، غير أن الجمال لا ينفك أبدأ يلاحقه الحب .
ثم أتاحت له السنون أن يتكلم في المعبد وفي بساتين الجليل . وكانت مريم
تتبعه أحياناً لتستمع إلى كلماته وتصغي إلى صوته المنبعث من فؤادها .
ولكنه عندما انحدر هو ومريدوه إلى بيت المقدس لم تشأ أن تذهب .
إذ نحن معشر أهل الشمال كثيراً ما نتعرّض للسخرية في شوارع بيت
المقدس وإن كنا ذاهبين نحمل قرابيننا إلى المعبد . وكانت مريم ذات عزة لا
تهون معها لأهل الجنوب .

* * *

ولقد زار عيسى بلاداً أخرى في الشرق والغرب . وما عرفنا أي بلاد زار ،
غير أن قلوبنا كانت تلاحقه .

لكن مريم جلست على عتبة دارها تنتظر .
وكانت مع كل مساء تتطلع بعينيها إلى الطريق ترقب أوبته .
و حين كان يعود كانت تقول لنا : إنه أجلّ من أن يكون لي ابناً ، وأفصح من
أن يُعزى إلى قلبي الصامت . تُرى كيف أعزوه لنفسي ؟
ولقد بدا لنا أن مريم لم تجسر على أن تصدّق أن السهل قد تمخض عنه
الجبيل ، ولم تر بصفاء قلبها أن الحافة هي الطريق المؤدية إلى القمة .
وإذ كانت قد فطنت إلى قدسية ابنها ، فلم تجسر على الإمعان في معرفته .
و ذات يوم عندما ذهب عيسى إلى البحيرة ليكون بين الصيادين قالت لي :
« هل الإنسان إلا هذا الكائن الدائم القلق انبثق من الأرض ؟ وماذا يكون
غير شوق يروم النجوم ؟
إن ابني لشوقٌ ، وهو كل ما فينا من حنين إلى النجوم .
هل قلت : « ابني » ؟ غفر الله لي . وإن كنت في أعماق قلبي مشوقة إلى أن
أكون أمه » .

* * *

وعسير أن ثمضي في الحديث عن مريم وابنها . غير أنني ، وإن غُصّ حلقتي
وسعت إليكم كلماتي سعى الأعرج على عكازته ، لزام عليّ أن أقصّ ما رأيت
وما سمعت :

كنا في مستهل العام والشقائق الحمراء تكسو التلال فدعا عيسى حواريه
وقال لهم : « تعالوا معي إلى بيت المقدس لتشهدوا ذبح الحمل في عيد
الفصح » .

وفي اليوم نفسه جاءت مريم إلى باب داري وقالت : إنه خرج يسعَى إلى
المدينة المقدسة ، تعالِي مع النسوة نتبعه ؟

فقطعنا ذلك الطريق الطويل إثر مريم وإثر ابنها حتى أدركنا بيت المقدس .
وهناك عند البوابة وقف جمع من الرجال والنساء يرحّب بنا ، إذ كان نبأ
وصوله قد زُفَّ إلى أحبائهم .

ولكن عيسى وصحبه غادروا المدينة في الليلة نفسها ، وخبرنا أنه ذهب إلى
بيت عَنيا .

وظلت مريم معنا في التزل تنتظر أوبته .

ومع المساء من يوم الخميس اللاحق قُبض عليه خارج الأسوار ، ثم أودع السجن .
وعندما سمعنا بأنه سجين لم تنبس مريم بكلمة ، ولكن بدا في عينيها أن قد
تحقق ما وُعدت به من أسى وفرح ، استشففناهما وهي عروس في الناصرة .
وما بكت . وما زادت على أن اضطربت بيننا كما يضطرب طيف أم لا تريد
أن تندب طيف ابنها .

وافترشنا الأرض جلوساً ، غير أنها ظلّت متصبّة تمشي في الحجرة جيئة وذهاباً .
تراها تارة واقفة إلى جانب الشباك تتطلع نحو المشرق ، ثم تسوي شعرها
إلى الوراء بأصابع يديها الاثنتين .

وأطلّ الفجر وهي لا تزال واقفة بيننا وكأنها راية وحيدة في ميدان قتال خلا
من المحاربين .

وبكينا ، فقد عرفنا ما سيطلع به الغدُ ابنها ، لكنها لم تبك لأنها هي
الأخرى كانت تعلم ما سيحدث له .



كانت عظامها من البرونز وعروقها من أشجار الغار العتيقة ، وعيناها مثل
السماء رحابة واستبسالا .

هل عهدتم الطائر الغرد يشدو وعشه يحترق في مهبّ الريح ؟
أرأيتم امرأة يعزّ حزنها على البكاء ، أو قلباً جريحاً يريد أن يسمو على
آلامه ؟

إنكم لم تروا امرأة كهذه ، لأنكم لم تمثلوا في حضرة مريم ، ولم يضمكم
حزن الأم «المحجوبة عن العيون» .

في تلك اللحظة الساكنة ، عندما دقت حوافر الصمت المكتومة صدور
الساهدين طلع علينا يوحنا أصغر أبناء زبدي وقال : أيتها الأم مريم : إن عيسى
ماض . تعالي لتبعه .

ووضعت مريم يدها على كتف يوحنا وخرجنا ومضينا نتبعهم ، وعندما
أدركنا برج داوود أبصرنا عيسى يحمل صليبه ومن حوله جمع عظيم .
وكان هناك رجلان يحمل كل صليبه أيضاً .

ومضت مريم معنا خلف ابنها مرفوعة الرأس ثابتة الخطى .
ومن خلفها سعت صهيون ورومة . نعم . . . الدنيا جميعها لتثار لنفسها من
رجل حرّ واحد .

وعندما أدركنا التل رفعوه عالياً على الصليب . ونظرتُ إلى مريم ، فإذا
وجهها ليس وجه امرأة ثكلى ، وإذا هو يحمل ملامح الأرض الخصبة تنسِلُ
أبدًا وتُجنُّ ما تلد أبدًا .

ثم عاودت عينيها ذكرى طفولة ابنها فقالت في صوت جهوري « بُنيّ الذي

ليس لي بابن ، أيها الرجل الذي أنس به بطني مرة ، إنني لفخورة بصوتك .
وإني لعلى يقين بأن كل قطرة تنحدر من يديك سوف تغدو مجرى مباركاً
لأمة . وكما مات قلبي مرة مع مغرب الشمس تموت أنت مع هذه العاصفة ،
ولن أحزن » .

وفي هذه اللحظة رغبتُ في أن أسترو وجهي بمعطفي وأفر إلى الشمال .

ولكني ، بغتة ، سمعت مريم تقول : « بُنيّ الذي ليس لي بابن . تُرى أي
شيء قلت لهذا الرجل الذي عن يمينك فجعلته يستقبل محنته متهللاً وتخفّ
ظلمة الموت في وجهه ، ولا تملك عيناه عنك حوَّلاً ؟

وإنك لتبتسم الآن إليّ ، وحين ابتسمتَ عرفتُ أنك قد غلبت » .

وتطلع عيسى إلى أمه وهو يقول : « يا مريم كوني منذ الآن أمّاً ليوحنا » .

كما قال ليوحنا : « كن ابناً باراً بهذه المرأة . امض إلى بيتها ولتجعل ظلك
يعبر العتبة حيث وقفتُ أنا مرّة . افعل هذا إشادةً بذكري » .

ورفعت مريم يمينها صوبه فكانت أشبه بشجرة ذات غصن واحد ، ثم
صاحت ثانية : « بُنيّ الذي ليس لي بابن ، إذا كان هذا من عند الله فليمنحنا الله
صبراً وعلماً به ، وإذا كان بفعل الإنسان فليغفر له الله أبداً .

إذا كان من عند الله فسوف تكون ثلوج لبنان لك كفنّاً ، وإذا كان بفعل هؤلاء
الكهنة وأولئك الجنود وحدهم فلك عندي هذا الثوب يستر عُريك .

بُنيّ الذي ليس لي بابن ، ما بينه الله في الحياة الدنيا لن يبيد أبداً ، وما يريد
العبد أن يخربّه يبقى مشيداً ، وإن لم تقع عليه عينه » .

وفي تلك اللحظة أسلمته السماء إلى الأرض صرخةً وأنفاساً ، كما أسلمته
مريم إلى بني الإنسان جرحاً وبلسماً .

ثم قالت مريم : « والآن ها هو ذا قد ولى . انتهت المعركة وتألق النجم حقاً ، وأدركت السفينة مرساها ، وغدا هذا الذي كان مرة مضموماً إلى صدري ينبضُ في الفضاء » .

واقتربنا منها فقالت لنا : « حتى مع الموت يتسم . لقد انتصر ، وإني لأبغى أن أكون حقاً أما المنتصر » .

ورجعت مريم إلى بيت المقدس تعتمد على يوحنا الحواريّ الفتى . وكانت امرأة قد وفت .

وعندما أدركنا بوابة المدينة حدقتُ في وجهها فاعترتني دهشة ، إذ عند ذلك اليوم كان رأس عيسى هو الأعلى بين رؤوس الناس ، ولم يكن رأس مريم دونه علواً . كل هذا وقع في الربيع من العام .

وها الخريف قد أقبل ، وعادت مريم أم عيسى إلى مسكنها ، وإنها لوحيدة .

* * *

ومنذ سبتين مضيا كان قلبي كأنه قطعة من حجر في صدري ، إذ كان ابني قد خلّفني ليستقلّ سفينة في صور ويكون ملاحاً ، وقال لي إنه لن يعود . وذات مساء سعيتُ إلى مريم .

وعندما دخلت عليها بيتها كانت جالسة إلى نولها ، لكنها لم تكن تنسج بل كانت تتطلع إلى السماء فيما وراء الناصرة .

فقلت لها : سلام عليك يا مريم .

فمدت إليّ ذراعها وقالت : تعالي واجلسي إلى جانبي ولنرقب الشمس وهي تصبّ دمهـا على التلال .

يوسف الملقب : يوستوس [العادل] عيسى عابر السبيل

كانوا يقولون إنه سُوقيّ، نباتٌ غير متميّز من أصل غير متميّز، ورجل فظ غليظ .

ويقولون : ما كان يمشط شعره غيرُ الريح ، وما كان يجمع بين جسده وثيابه غيرُ المطر .

ويعدّونه ذا جنّة ، ويعزون كلماته إلى الشياطين .

ولكن ها هو ذا الرجل المهين قد ارتفع صوته متحدّياً، ولسوف يبقى التحدي إلى الأبد متصلاً .

لقد أنشد أنشودة ولن يقدر لأحد أن يُسكتَ لها نغمًا، بل سوف يحلّق هذا النغم من جيل إلى جيل ، ويصعد أفلاكاً وراء أفلاك ذاكراً تلك الشفاه التي عليها نشأ ، وتلك الأذان التي كانت له مهداً .

كان غريباً . أجل كان غريباً . عابر سبيل اتخذ سبيله إلى مقام القديسين ، وزائراً طرق علينا بابنا ، وضيئاً ألمّ من قُطر بعيد .

وإذ لم يجد مُضيفاً كريماً عاد أدراجه إلى حيث يقيم .



فيليبّوس « حين مات مات الناس »

حين مات مَنْ نحبّ مات البشر أجمعين ، ولفترة ما غشى الكائنات جميعاً
وجوم وعلتها غبرة .

ثم أظلم الشرق وهبت منه عاصفة اقتلعت ما على الأرض .
وتفتحت عيون السماء وانطبقت وانهمر المطر مدراراً ليحرف الدم الذي
جرى من يديه وقدميه .
ولقد متّ أنا الآخر .

غير أنني في مدارج ذهولي أسمعته يتحدث ويقول : ربّاه اغفر لهم فإنهم لا
يعلمون ما يفعلون .

وسعى صوته يطلب روعي الغريقة ، وإذا بي أعود إلى الشاطئ . وفتحت
عيني فرأيت جسده الأبيض متدلّياً بين السحب ، وأخذت كلماته التي سمعتها
تتشكّل في نفسي وعُدتُ رجلاً جديداً . ولم أعد آسي .

مَنْ ذا الذي يأسى للبحر يكشف عن وجهه ، أو للجبل يضحك في نور
الشمس ؟

هل حدث قط أن نطق قلب الإنسان ، وهو هكذا مطعون بمثل هذا الكلم ؟
وأي قاضٍ بين البشر برّاً مَنْ حكموا عليه ؟

وهل تحدّثت المحبة الكراهية أبداً في قوة أكثر من قوتها تلك وثوقاً
بنفسها ؟

وهل سُمع صوتٌ مثل صوت هذا الصُّور قط يُدوي بين السماء والأرض؟
وهل عُرِف من قبل أن قتيلاً أخذته الرحمة بقاتليه؟ أو أن الشَّهاب عوّق من
سيره من أجل خُلْد؟

لسوف تفتتِر الفصول ، ولسوف تنخذل الأعوام قبل أن تستنفدَ هذه
الكلمات : «ربّاه اغفر لهم فإنهم لا يفقهون ما يفعلون» .
وإني وإياك - على توالدنا مرة بعد مرة - سوف نعيها .
وبودّي الآن أن أذهب إلى داري وأمثّل في باب العليّ شحاذاً رفيع المقام .



بريارة اليمونية عن عيسى حين ينقاد صبره

كان عيسى يصبر للغبيّ والأحمق وكأنه الشتاء يترقب الربيع صابراً .
كان صبوراً صبر الجبل في مهبّ الريح .
وكان رفيقاً في إجابته عن أسئلة خصومه الفظة .
بل كان يؤثر الصمت على المداورة والمجادلة إذ كان قوياً، والقويّ شديد الاحتمال .
لكن عيسى كان كذلك غير صبور .
فما كان يصبر للمنافقين .
وما كان يخضع للماكرين من الرجال ولا للمتلاعبين بالقول ، ولم يشأ
أن ينقاد .
كان ضيقاً بهؤلاء الذين لا يؤمنون بالنور إذ كانوا هم أنفسهم يعيشون في
حُلْكة الظلّ، وبهؤلاء الذين يتطلّعون إلى آيات السماء أكثر من تطلّعهم إلى
آيات قلوبهم .
كان ضيقاً بهؤلاء الذين يزنون النهار والليل ويقيسونهما ، ولمّا ياتمّنوا
الفجر أو المساء على أحلامهم .
كان عيسى صبوراً .
غير أنه كان أيضاً أقلّ الناس صبراً .
يودّ لك أن تنسج الثوب ولو أنفقت السنين بين النول والكتان ، غير أنه
حريص على ألاّ ينتزع قيد أنملة من غزل منسوج .

من زوجة بيلاطس إلى سيدة رومانية عن الحب والقوة

كنت أسير بين وصيفاتي في الحرجات خارج بيت المقدس حين رأيناه بين قلة من الرجال والنساء جالسين حوله ، وكان يتحدث إليهم بلغة لم أفهم غير شطر منها .

غير أن الإنسان لا تعوزه لغة ليتبين عموداً من نور أو جبلاً من بللور ، فالقلب يدرك ما قد لا يفوه به اللسان وما قد لا تدركه الأذان أبداً .

كان يتحدث إلى صحابه عن الحب والقوة .

وقد أدركت أنه يتحدث عن الحب لأن صوته كان يشدو بلحن شجي .

كما أدركت أنه يتحدث عن القوة ، إذ كانت الجيوش في إيماءاته . وكان رقيقاً وإن كان زوجي لا يملك أن يتحدث بمثل قدرته الواثقة .

وعندما رأني أمرّ به وقف عن الكلام برهة وتطلع إليّ في رفق ، فتخاذلت وأيقنت أنني أمرّ بإله عظيم .

ومنذ ذلك اليوم تلمّ صورته بي في خلوتي حتى عندما اعتزل الرجال والنساء ، وتطلب عيناه روحي حتى عندما تكون عيناى مغمضتين ، على حين يهيمن صوته على سكون ليالي .

لقد أوثقت وثاقاً إلى الأبد ، وإني لأجد راحة وسلاماً في آلامي ، وانطلاقاً وتحراً في بكائي .

أيتها الصديقة الحبيبة ، أنت لم تري ذلك الرجل قط وسوف لا ترينه أبداً .

لقد ذهب إلى حيث لا يحيط به إدراكنا ، ولكنه الآن أقرب الرجال جميعاً إليّ .

رجل خارج بيت المقدس عن يهوذا الإسخريوطي

في يوم الجمعة ذاك ، وفي عشية عيد الفصح سعى يهوذا إلى بيتي وطرق بابي بعنف .

وعندما دخل تطلعت إليه فإذا وجهه مُغبر في لون الرماد، وإذا يدها تُرعدان رعدة الأغصان اليابسة في مهبّ الريح ، وإذا ثيابه مبتلة وكأنه خارج لتوه من نهر ؛ فلقد كان مساء عاصفاً أشدّ العصف .

نظر إليّ وكأن محجريّ عينيه كهفان مُعتمان ، وبدت عيناه مخضلتين بالدم . وقال : لقد أسلمت عيسى الناصريّ إلى أعدائه وأعدائي .

ثم اعتصر يهوذا كفيه وقال : لقد جهر عيسى بأنه سوف يدحر أعداءه جميعاً وأعداء قومه ، ولقد صدقته وتبعته .

وعندما دعانا إليه أول الأمر وَعَدَنَا مملكة قوية ممتدة ، وفي غمرة التصديق خطبنا ودّه سعياً إلى المراكز الرفيعة في بلاطه .

ورأينا أنفسنا أمراء نُعامل هؤلاء الرومان كما عاملونا . ولقد تحدّث عيسى كثيراً عن مملكته ، وخلت أنه اختارني قائداً لعجلاته الحربية وقائداً لمحاربيه . وتبعته خُطاه عن رغبة ، غير أنني أدركت أنها لم تك مملكة تلك التي نشدها عيسى ولا هو كان يريد تحريرنا من الرومان .

لم تك مملكته غير مملكة القلب . فلقد سمعته يتكلم عن الحب والبرّ والصفح ، وأصغت إليه النساء على جنبات الطريق منشرحات ، غير أن قلبي غداً مرّاً متصلباً .

وفجأة بدا لي ملك اليهودية الذي وعدنا به وقد انقلب عازف مصفار يصانع عقول الصعاليك والشاردين ويطيب خواطرهم .

ولقد أحببته كما أحبه الآخرون من أبناء عشيرتي . ورأيت فيه أملاً وخلصاً من نير الأجانب . غير أنه حين لم يشأ أن ينطق بكلمة أو يحرك يداً ليخلصنا من ذلك النير ، وحين زاد فدعاً إلى أن يسلم ما لقيصر لقيصر . عندها ملأني اليأس وماتت الآمال في قلبي وقلت : إن هذا الذي قتل آمالي حقيق أن يُقتل ، إذ أن آمالي وما أرتقب أعز من حياة أي إنسان .

ثم صرّ يهوذا بأسنانه وطأ رأسه : وعندما عاد يتكلم قال : لقد أسلمته ، ولقد صُلب اليوم . . . غير أنه حين مات على الصليب مات ملكاً . مات في العاصفة كما يموت «المُخلّصون» ، مثله مثل الرجال العظام الذين يحيون وإن ضمتهم الأكفان ووارتهم الصخور ، وكان جليلاً وكان ودوداً طوال الفترة التي أسلم فيها روحه . ولقد امتلأ قلبه شفقة حتى لقد أشفق على أنا الذي أسلمته .

قلت : يا يهوذا ، لقد اقررت إثماً إذاً !

فأجاب يهوذا : لكنه مات ملكاً ، فما باله لم يعيش ملكاً ؟

وعدت أقول : لقد أجزمت جرماً فادحاً !

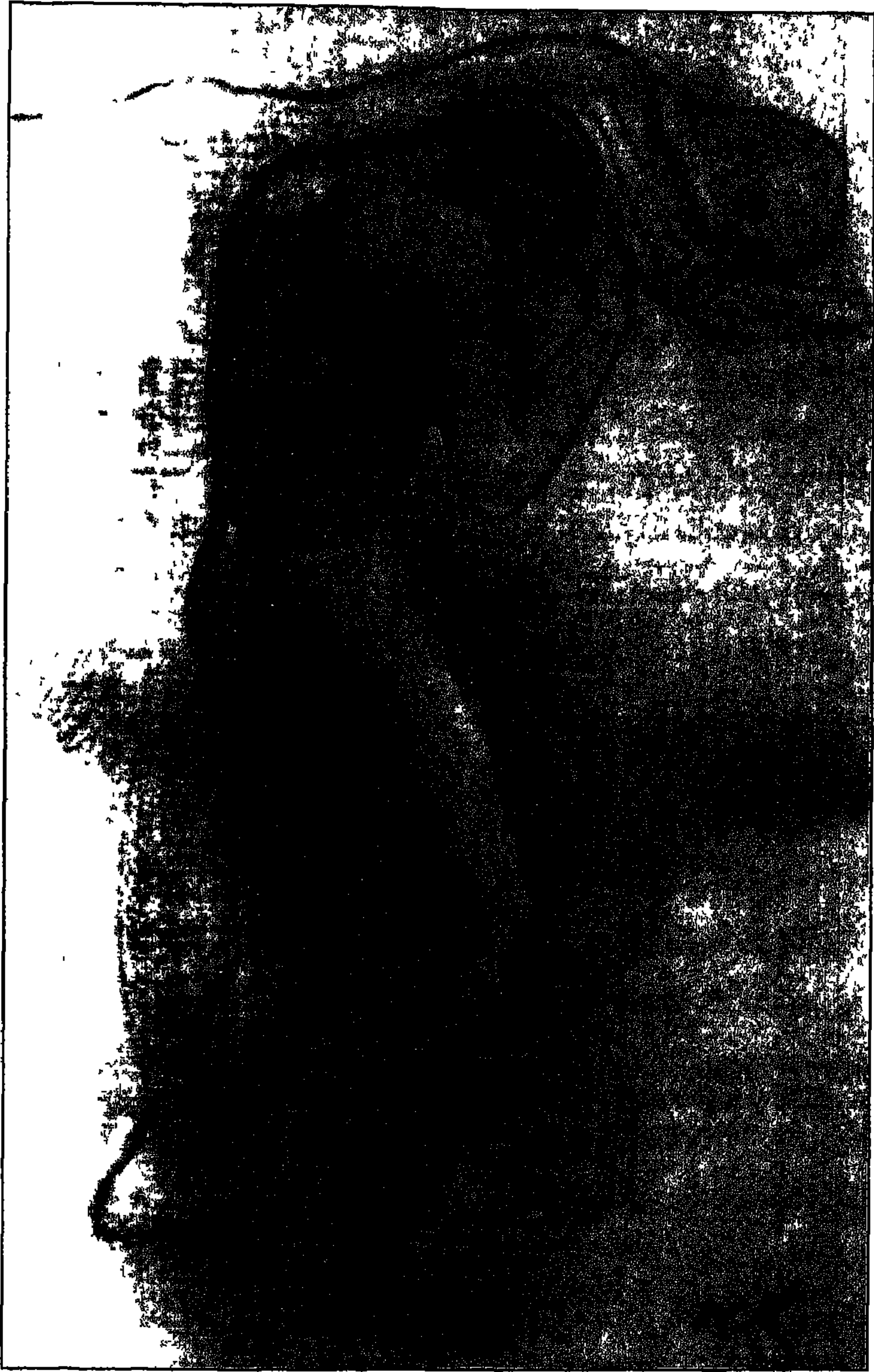
فجلس هناك على ذلك المقعد لا حراك به كالحجر .

وغدوت في الحجرة جيئة وذهاباً . ومرة أخرى قلت : لقد ارتكبت خطيئة

كبرى !

فلم ينطق يهوذا بكلمة ، وبقي صامتاً صمت الأرض .

ثم انتصب واقفاً بعد برهة ووجهه إلى وجهي وبدالي أطول مما كان . وحين



تكلم كان صوته أشبه بصوت الإناء المشدوخ وقال : لم أعقد على الخطيئة قلبي ، وسأنشد «مملكته» هذه الليلة عيناها ، وسوف أمثلُ بين يديه أسأله المغفرة . مات ملكًا ، وسأموت أنا آثمًا ، غير أنني أعرف في قرارة نفسي أنه سوف يغفر لي .

وبعد أن قال هذه الكلمات التفع بعباءته المبلّلة وقال : حسنًا فعلت حين جئت إليك هذه الليلة وإن كنت قد حملتك مشقة . هل لك أن تغفر لي أنت الآخر؟ قُل لأبنائك وأبناء أبنائك إن يهوذا الإسخريوطي أسلم عيسى الناصريّ لخصومه لأنه ظن أن عيسى عدو لبني جنسه . كذلك قُل إن يهوذا ، في اليوم نفسه الذي وقعت فيه خطيئته العظمى ، تبعَ الملك على درجات عرشه ليسلم نفسه فينال القصاص . سأقول له إن دمي هو الآخر كان لهفًا إلى الانسياب على الحصباء ، وإن روحي المكبلة كانت تتشوّف إلى خلاصها .

ومال يهوذا إلى الوراء برأسه على الجدار وصرخ : «أيها الربّ، يا من لا يهمس باسمه المهيب إنسان قبل أن تمسّ أصابع الموت شفّتيه ، لماذا حرقتني بنار لا نور لها . ولم منححتَ الجليليّ هوىً إلى أرض لا علم لنا بها ، وأثقلت كاهلي بشوق لا يرتفع عن حب الأقارب وأنس المصْطلي؟ ومن ذا يكون يهوذا هذا الذي غمس يديه في الدم؟

مُدّ لي يداً لأطرحه بعيداً كما يُطرح الثوب الخلق وكما تُطرح عدّة الخيلِ الرثة .

أعني لأفعل هذا ليلتي هذه .

ونخلني أقف ثانية خارج تلك الأسوار .

لقد أثقلتني هذه الحرية التي لا جناح لها ، وإنني لراغب في سجن أكبر .

ليتنى أسكب جدولا من الدموع ينساب إلى البحر الأجاج .
ليتنى أكون إنسانا وسعته رحمتك ، لا إنسانا يقرع باب قلبه هو .
بهذا تكلم يهوذا ، وعندها فتح الباب ورمى بنفسه في أحضان العاصفة .

* * *

وزرت بيت المقدس بعد أيام ثلاثة وسمعت بكل الذي وقع ومرّ ، كما
سمعت أن يهوذا ألقى بنفسه من قمة الصخر العالية .

وفكرت طويلا منذ ذلك اليوم وأدركت ما عند يهوذا . لقد اكتملت له حياة
صغيرة القدر طوّفت كما تطوّف الضبابة فوق هذه البلاد التي استعبدها الرومان
على حين كان النبي العظيم يسمو إلى العلا .

هذا رجل كان يتوق إلى مملكة يكون فيها أميراً .

وذاك رجل كان يرغب في مملكة يكون فيها كل الرجال أمراء .



سرقيس راع يوناني عجوز يدعى : «المجنون» عيسى وپان

في حُلْم رأيت عيسى وإلهي «پان»(*) جالسين معاً في جوف الغابة
يضحك كل منها من حديث صاحبه، والجدول يجري قريباً منهما، وكان
ضحك عيسى أبلغ مرحاً، ثم تحدثنا طويلاً .
فتكلم پان عن الأرض وأسرارها، وعن إخوته ذوي الحوافر، وعن أخواته
ذوات القرون، وعن الأحلام . ثم تكلم عن الجذور وما يقوم حولها، وعن
العصارة التي تنهض وترقى لتصدق مع الصيف .
وتحدث عيسى عن البراعم الصغيرة في الغاب، وعن الأزهار وعن الثمار،
وعن البذور التي سوف تُجنُّها لفصل لَمَّا يأت بعد . وتكلم عن الطير في
الفضاء وهي تصدح في دنيائها العلوية . وتحدث عن الأيائل البيض في
الصحراء يرعاها الله .
وكان إله الرعاة مُتَشَبِّهاً بحديث الإله الجديد، تنتفض طاقات أنفه من فرط
السرور .

(*) Pan كان الإله هرمس إله الخصب عند اليونان فأُنجب پان الذي غدا بدوره إلهاً للرعاة
والصيادين في أركاديا ، ثم انتشرت عبادته وكهنته في جميع أنحاء اليونان . وورث پان
عن أبيه المرح فمضى يتجول في الغابات يراقص الحوريات ويعزف على القيثارة والمصفار
أجزل النغم ويحسن التنبؤ وتفسير الأحلام . وصوره رعاياه على شكل إنسان له قرنان
قصيران ولحية كثة وساقا تيس . [ثروت عكاشة: المعجم الموسوعي للمصطلحات
الثقافية . الشركة المصرية العالمية للنشر- لوجمان ١٩٩٠].

وفي الحلم عينه تبينت إله الرعاة وعيسى عليهما هداة الظلال السندسية
وسكونها .

ثم أخذ إله الرعاة قصباته وجعل يصفر لعيسى فاهتزت الأشجار واضطرب
السرّخس ، وغشيني رعب .

فقال عيسى : أيها الأخ الصالح ، إن في صوت مصفارك مسارب الغاب
والمرتفعات الصخرية .

ثم أعطى بان القصبات لعيسى وهو يقول : الآن صفرك ، فهذا دورك .

وقال عيسى : إن هذه القصبات فوق ما يقوى عليها فمي . وما هوذا
مصفاري .

وتناول مصفاره وصفّر .

فسمعت في لحنه صوت المطر ينهمر على أوراق الأشجار وهدير الجداول
بين التلال وتساقط الثلوج على قمم الجبال . وأخذت نبضات قلبي التي خفقت
يوماً مع الريح تستأثر بها الريح من جديد .

وتجمعت أمواج أمسي كلها على شاطئي ، وعدت ثانية سر كيس الراعي ،
وأصبح مصفار عيسى قصبات لعدد لا يحصى من الرعاة تدعو قطعاناً لا يحيط
بها عدّ .

عند ذلك قال بان لعيسى : « إنك في اقتبال عمرك لأقرب إلى المصفار مني
برغم ما طويت أنا من أعوام .

وقبل هذا بأمد طويل سمعت في سكوني أنشودتك وهمس لي هامس
باسمك .

إن لاسمك رنينًا عذبًا، وليرقن طيبًا مع العُصارة إلى الغصون، وليجرين طيبًا مع وقع الحوافر بين التلال. وما كان اسمك غريبًا عليّ بالرغم من أن أبي لم يدعني به. ولقد كان مصفارك هو الذي أعاد هذا الاسم إلى ذاكرتي.

والآن فلنصفر في قصبتنا معًا.

وصفرا معًا.

فاهتزت لموسيقاهما السماء والأرض، وشملت الرهبة الكائنات الحيّة جميعًا.

ولقد سمعتُ حين سمعت إلى الوحوش وهي تجأ، والغابات يرن فيها صوت الجوع، وسمعت صراخ الناس في عزلتهم، ولهفة الذين يتشوفون إلى ما لا يعرفون.

وسمعت الصبيّة العذراء وهي تتحرق شوقًا إلى مَنْ تحب، وسمعت الصائد العاثر الجدد وهو يلهث في إثر فريسته.

ثم حلّ السلام بموسيقاهما فإذا السماء والأرض تغنيان معًا.

هذا كله رأيت في حلمي، وهذا كله سمعته.



حنانيا رئيس الكهنة عيسى رجل من الفوغاء

كان رجلا من الفوغاء ، قاطع طريق ، مشعوذاً ، بوقاً لنفسه ، لا يركن إليه إلا المدنسون الأدعياء . وهو لهذا كان لا بد له من سلوك طريق الملوئين الدّسّين . وكان يتخذنا ويتخذ شرائعنا هُزواً ، يهون من مراتبنا ويحطّ من أقدارنا . بل كان يقول : إنه سوف يخرّب الهيكل وينتهك حرّمات الأماكن المقدسة . كان لا حياة عنده ، ومن أجل هذا كان حتماً أن يموت ميتة مهينة .

كان رجلا من الجليل ، أرض الأعمّيين المارقين من غير اليهود ، غريباً من الأقطار الشمالية حيث لا يزال أدونيس وعشطروط خارجين على إسرائيل ورب إسرائيل ، ينازعانها السلطان .

وكان هذا الذي يتعثر لسانه حين يحدث حديث أنبيائنا ، عالي الصوت يصمّ الآذان حين يتكلم كلام الأرزّال من السّفلة وذوى المهد الوضيع .

وهل كان أمامي إلا أن أقضي بموته ؟

ألم أكن حامي حمى الهيكل ؟ ثم ألم أكن أذود عن الشريعة ؟ أكان في مقدوري أن أوليه ظهري وأقول مطمئناً الاطمئنان كله : إنه مجنون بين مجانين ، خلّه وشأنه ليُفرغ ما عنده من هذيان ، إذ المجنون ومن به جنّة وهؤلاء الذين استحوذت عليهم الشياطين سوف يكونون نسياً منسياً في طريق إسرائيل ؟

أكان في مقدوري أن أصمّ أذني عندما دعانا كاذبين مرّائين ، ذئاباً وأفاعي وأبناء أفاع ؟

ما كان بوسعي أن أعيره أذنًا غير واعية ، إذ لم يكن مجنونًا بل كان متمالك
النفس رابط الجأش . وبعقله الراجح العالي الصوت شهراً بنا جميعاً وتحدّانا .

لهذا قويتُ على أن أصلبه . وكان صلبه بلاغا ونذيراً لهؤلاء الذين طُبعوا
بطابعه اللعين . وإني لأدري حقاً أنني على هذه ملوم حتى من شيوخ مجلس
اليهود . غير أنني حرصت إذ ذاك ، ومازلت الآن أحرص على أن يموت رجل
واحد من أجل الشعب بدلا من أن يُقاد الناس إلى الضلال على يد رجل
واحد .

لقد غُزيت اليهودية من قبل بعدو ليس منها . ولسوف أحرص على ألا
يغزوها من بعد عدوٍّ من بينها .

ولن نسمح لرجل من أرض الشمال الملعونة أن ينال من قدس أقداسنا ولا
أن يقع ظلّه على تابوت العهد .



امراة من جارات مريم مرثية

في اليوم الأربعين بعد موته خفّت جارات مريم كلهن إلى بيتها لينحنّ
مُعزّيات مواسيات . وأنشدت إحداهن هذه الأنشودة :

إلى أين يا ربّيعي ، إلى أين ؟

وإلى أي فضاء يصّاعد عبيرُ شذاك ؟

وفي أية حقول سوف تهيم ؟

وإلى أية سماء سوف ترفع ناظريك كي تُعين قلبك على البوّح بما يُكنّ ؟

لسوف تغدو هذه الأودية قاحلة جدباء ،

ولن تكون لنا سوى حقول جافة جرداء ،

وكل ما هو أخضر سوف تحرقه الشمس .

ولسوف تُثمر أشجار بساتيننا تفاحاً حامضاً ،

وكرؤنا عنباً مرّاً .

وسيكون بنا ظمأ إلى نبيذك ،

وسوف تتوق حواس شمننا إلى عبيرك .

* * *

إلى أين «يا زهرة» ربّيعنا الباكر . . . إلى أين ؟

أترك لن تؤوب ؟
أثرى ياسمينك لن يُعاودنا أريجُه من جديد ؟
ألن تحف طريقنا شجيرات بخور مريم ؟
لتطمئننا إلى أننا بدورنا لنا جذور تتعمق الأرض ،
وأن أنفاسنا المتصلة ستظل أبداً تعرج في السماء .
إلى أين يا عيسى . . . إلى أين ؟
يا مَنْ أنت ابنُ جارتي مريم ،
ورفيقُ لابني .
إلى أين يا ربيعنا الباكر وإلى أية حقول ؟
هل من أوبةٍ إلينا ثانية ؟
أترك مع فيض حبك تغمر شواطئ أحلامنا المجذبة ؟



آحاز البدين صاحب فندق العشاء قبل الفصح

أذكر الذكر كله آخر مرة لقيت فيها عيسى الناصري . أتى إليّ يهوذا مع الظهر من يوم الخميس وطلب مني أن أعدّ عشاء لعيسى وصحبه ، وأعطاني درهمين من الفضة وقال : ابتع كل ما ترتثيه لازماً للطعام .

وبعد ما ولى قالت لي زوجتي : « إن هذا لشرف حق » ، إذ كان عيسى قد أصبح نبياً وأتى بمعجزات كثيرة .

وعند الغسق جاء وجاء معه أتباعه وجلسوا في القاعة العليا حول المائدة يسودهم الصمت والسكون .

وكانوا قد جاءوا كذلك في العام المنصرم والعام الذي قبله ، غير أنهم إذ ذاك كانوا مرحين . كسروا الخبز وشربوا النبيذ وغنّوا أغانينا القديمة ، وتحدّث إليهم عيسى إلى منتصف الليل .

وبعد هذا خلفوه وحده في القاعة العليا ومضوا ليناموا في حجرات أخرى إذ كان يرغب بعد منتصف الليل في أن يكون وحيداً . إذ ذاك يظل يقظاً حتى إنني لأسمع خطواته عندما أضطجع على فراشي .

غير أنه في تلك المرة الأخيرة لم يكن سعيداً ، ولا أصحابه .

وكانت زوجتي قد أعدت أسماكاً من بحيرة الجليل ، وديكة بريّة من حوران محشوة بالأرز وحب الرمان ، كما حملت إليهم قدرًا من نبيذ المعدّ من شجر السرو ، ثم خلّيتهم إذ شعرت أنهم راغبون في الوحدة .

ولقد لبثوا حتى ساد الظلام وعندها هبطوا جميعاً من القاعة العليا ، غير أن عيسى تلبّث برهة عند أسفل الدرج وتطلّع إليّ وإلى زوجتي ثم وضع يده على رأس ابنتي وقال : طاب ليلكم جميعاً وسنعود ثانية إلى القاعة العليا ولكننا لن نغادركم في مثل هذه الساعة المبكرة بل سنبقى إلى أن تشرق الشمس على الأفق . وبعد برهة وجيزة سنعود ونطلب مزيداً من خبز ونبيذ . لقد كنت أنت وزوجك لنا مضيفين كريمين ، وسوف نذكركما عندما نبلغ دارنا ونجلس إلى مائدتنا .

وقلت : كان شرفاً لي أن أخدمك أيها المعلم . ولقد نفسَ عليّ زيارتك إياي أصحابُ الفنادق الأخرى ، وفي زهوة الفخر كنت أوسم لهم في ساحة السوق ، وأحياناً أصطنع التجهّم .

وقال : حقُّ لأصحاب الفنادق جميعاً أن يفخروا بما يؤدون من خدمات ، فإن الذي يعطي الخبز والنبيذ أخٌ لمن يحصد ويجمع حزم الحنطة من أجزائها ، وشقيقٌ لمن يعصر العنب على معاصر النبيذ . وكلكم كرماء تعطون من فضلكم حتى الذين يجيئونكم لا يملكون شيئاً غير الجوع والظمأ .

ثم التفت إلى يهوذا الإسخريوطي الذي كان يحفظ كيس الرفقاء وقال : أعطني درهمين ، وأعطاه يهوذا درهمين قائلاً : هذان هما آخر درهمين في كيسي . فنظر إليه عيسى وقال : عن قريب ، عن قريب جداً سوف يمتلئ كيسك بدراهم الفضة .

ثم وضع القطعتين في يدي وقال : اشتر بهذين منطقة من الحرير لابنتك ثم مرّها أن تلبسها في عيد الفصح لتذكرني . ثم نظر إلى وجه ابنتي ثانية وانحنى يقبل جبينها وقال ثانية : طاب ليلكم جميعاً .

ثم مضى لسبيله .

ولقد نُبت أن هذا الذي قاله لنا سجّله على رقّ صديقٍ من أصحاب
أبي أعيدته عليكم كما سمعته من شفّتيه .

وأبدأ لن أنسى جرس صوته عندما قال تلك الكلمات :
جميعاً» .

وإذا شئت أن تعرف مزيداً عنه فسأل ابنتي . هي الآن امرأة ؛
بذكريات طفولتها ، وكلماتها أكثر حضوراً من كلماتي .



بارابّاس كلمات عيسى الأخيرة

لقد نخلّوا سيّلي وأمسكوا به ، فعلا وسقطتُ .
وأمسكوا به ضحية وقرباناً ليوم الفصح .
وحرّرت من أغلالي وسرت في زحمة الناس خلفه ، غير أنني كنت في
الحق حياً يسعى إلى قبره .
كان عليّ أن أهرب إلى الصحراء حيث تحرق الشمس عار الناس .
غير أنني مضيت مع هؤلاء الذين جرّوه للقتل ليحمل عني وزري .
وعندما سمروه إلى صليبه كنت واقفاً أشهد .
رأيتُ وسمعتُ ولكن خيل إليّ أنه لم يكن جسدي هو الذي يرى ويسمع .
وقال له اللص الذي صُلب إلى يمينه : أيقطر دمك مع دمي ، دمك أنت
يا عيسى الناصريّ ؟
وأجابه عيسى يقول : « لولا هذا المسمار الذي يشدّ يدي لمددتها إليك
وشددتُ على يدك . لقد صُلبنا معاً . ويا ليتهم أقاموا صليبك قريباً من
صليبي » .
ثم أطرق ينظر وتطلّع إلى أمه وإلى فتى كان يقف إلى جوارها .
وقال : « أماه ، ها هو ذا ابنك يقف إلى جوارك .
أيتها المرأة ارقبي رجلا سوف يحمل قطرات دمي إلى بلاد الشمال » .

وعندما سمع عويل نسوة الجليل قال : ها هن أولاء يذرفن الدموع ، وإني لعاطش .

ما أبعدني في مُرتقاي عن أن أبلغ دموعهن .

وما أنا براو ظمئي بالخلّ والمرارة .

ثم جحظ بعينه إلى السماء وقال : إلهي . . إلهي ، لماذا تركتني ؟

ثم قال في شفقة : « ربّ اغفر لهم فإنهم لا يفقهون ما يفعلون » .

وعندما نبس بتلك الكلمات حسبتُ أني أرى الناس كلهم وقد خرّوا سُجّداً

بين يديّ الله يضرعون إليه ليغفر لهم صلبهم هذا الرجل الفرد .

ثم عاد يقول في صوت جهوريّ : ربّي إليك أسلمُ روحي .

وأخيراً رفع رأسه وقال : الآن قُضي الأمر ، ولكن فوق هذا التل من الدنيا

فحسب .

ثم أغمض عينيه .

عندها انصدعت السموات المظلمة بنور البرق وكان ثمة رعد شديد .

وإني لأتبيّن الآن أن هؤلاء الذين ذبحوه عوضاً عنيّ قد قضوا عليّ بالعذاب

المقيم .

فما بقي صلبه غير ساعة .

غير أني سأظل مصلوباً حتى نهاية أعوامي .

كلوديوس قائد روماني عيسى الرواقي

بعد أن اعتقلوه جعلوه أمانة في يدي ، وأمرني بيلاطس البنطي أن أودعه السجن إلى صباح اليوم التالي .

وقاده جنودي سجيناً ، وكان لهم مطيعاً .

وعند منتصف الليل تركت زوجي وأطفالي وزُرت دار السلاح ، وكان من عادتي أن أتعمّس ليلاً للاطمئنان على أن كل ما يتصل بكتائبي في بيت المقدس على خير حال . وفي تلك الليلة زرت دار السلاح حيث كان بها سجيناً .

وكان جنودي ونفر من أحداث اليهود يتخذونه هزواً ، فقد نزعوا عنه ثوبه ووضعوا فوق رأسه تاجاً من أشواك الخلنج المتخلفة عن العام المنصرم . وأجلسوه لقاء عمود وأخذوا يرقصون أمامه ويتصايحون .

وأعطوه قصبه ليمسك بها في يده .

وعندما وصلتُ صاح نفر منهم : «انظر أيها القائد . . . ها هو ذا ملك اليهود» .

ووقفت أمامه أنظر إليه ، وأحسستُ الحزبي وما عرفت مبعثه .

لقد حاربت في بلاد الغال وفي إسبانيا ، وواجهت الموت برجالي وما استشعرت الخوف أبداً ، كما لم يحدث أني جبنت قط ، غير أني حين وقفت أمام ذلك الرجل ونظر إليّ ، انخلع قلبي وخيل إليّ كأن شفّتي أطبقتا وما عدت أقوى على أن أنبس بكلمة .

وعلى الفور غادرت دار السلاح .
حدث هذا منذ ثلاثين عامًا . وأولادي الذين كانوا أطفالا إذ ذاك قد غدوا
رجالا وهم الآن يخدمون قيصر ورومة .
وكثيراً ما تحدثتُ إليهم عنه وأنا أبصّرهم فأضرب لهم به مثلاً : رجلا
استقبل الموت وماء الحياة على شفّتيه والشفقة على قاتليه في عينيه .
علّتُ سنيّ بعد أن عشتُ أيامي حافلة . وإني أومن حقاً أن ذلك «الرجل»
من الجليل بلغ في عظمة القيادة ما لم يبلغه پومپي ولا قيصر .
إذ منذ أن استسلم للموت هبّ جيشٌ من أهل الأرض ليحارب من
أجله . . . ولقد خدموه ميّتاً فوق ما خُدمَ به پومپي أو قيصر حينئذ .



يعقوب العشاء الأخير

آلاف من المرات عاودتني ذكرى تلك الليلة ، وأعلم أنها لن تنفك تعاودني
آلافاً أخرى من المرات .

هيهات أن أنسى تلك الليلة إلا إذا نسيت الأرض الأخاديد التي شقها
المحراث على صدرها ، وغفلت الأم عن آلام الوضع وبهجته .

في الظهر كنا خارج أسوار مدينة بيت المقدس فقال لنا : « الآن فلنذهب إلى
المدينة ولنطعم عشاءنا في الخان » .

وكان الظلام قد أرخى سدوله حين أدركنا الخان ، وكنا جوعاً ، فحيانا
صاحب الخان وقادنا إلى القاعة العليا .

وأمرنا عيسى أن نجلس حول المائدة . غير أنه ظل وحده واقفاً وعيناه لا
تتحولان عنا .

وتحدث إلى صاحب الخان وقال : هبّ لنا حوضاً وإبريق ماء ومنشفة .

ونظر إلينا ثانية وقال في رفق : اخلعوا نعالكم .

ثم أحضر صاحب الخان الحوض والإبريق وقال عيسى : الآن أغسل
أقدامكم ، إذ عليّ أن أخلص أقدامكم من غبار الطريق القديم ، وأمنحها
الخلاص للطريق الجديد .

وعمنا جميعاً ارتباك وخجل .

ثم وقف سمعان بطرس وقال : كيف أثقل على معلّمي وسيدي بغسل
قدمي؟

وأجاب عيسى : سأغسل قدميك علك تذكر أن الذي يخدم الناس هو العظيم بين الناس .

ثم نظر إلى كل منا وقال : إن ابن الإنسان الذي اصطفاكم لتكونوا له إخوة ، هذا الذي طهرت قدماه بالأمس بمرُّ بلاد العرب وجففتا بشعر امرأة يريد الآن أن يغسل أقدامكم .

وأخذ الحوض والإبريق وجثا على ركبتيه يغسل أقدامنا بادئاً بيهوذا الإسخريوطي .

ثم جلس معنا إلى المائدة ، وإن وجهه لكالفجر يُشرق على ساحة القتال في أعقاب ليلة من صراع وسفك دماء .

ثم جاء صاحب الخان وزوجه يحملان طعاماً ونبيداً . ومع أنني كنت أحسّ الجوع قبل أن يجثو عيسى على ركبتيه بين قدمي ، فقد فقدت الآن شهيتي للطعام . وكان ثمة لهيب في حلقي لا أستطيع أن أطفئه بالنيذ .

ثم أخذ عيسى رغيفاً وأعطانا إياه وهو يقول : لعلنا لا نكسر الخبز معاً مرة أخرى . فلنأكل هذه الكسرة في ذكرى أيامنا بالجليل .

ثم صبّ النبيذ من القدر في قدح وشرب وأعطانا وهو يقول : « اشربوا هذا ذاكرين الظمأ الذي عرفناه معاً ، واشربوه أيضاً أملين في خمر جديدة . وحين تُطوى صفحاتي ولا أعود أمثلُ بينكم ، وحين تلتقون هنا أو في أي مكان آخر اكسروا الخبز وصبّوا النبيذ وكلوا واشربوا كما أنتم الآن فاعلون ، ثم انظروا فيما حولكم فقد ترونني جالساً معكم إلى المائدة» .

وما إن قال هذا حتى أخذ يفرق بيننا قُطيمات من السمك والديوك البرية كأنما هو طائر يُطعم أفراخه الصغيرة .

وأكلنا قليلا غير أننا امتلأنا ، وما شربنا غير قطرة إذ كنا نشعر أن القدر أشبه بالفضاء بين هذه الأرض وأرض أخرى .

ثم قال عيسى : قبل أن نترك هذه المائدة فلنتهض ولننشد أناشيد الجليل المرححة .

ونهضنا وأنشدنا معاً ، وكان صوته يعلو أصواتنا برنين يميّز كلماته عن كلماتنا ويجاوزها . ثم تطلع إلى وجوهنا جميعاً ، ثم إلينا وجهاً ووجهاً وقال : والآن أقول لكم وداعاً . فلنمض إلى ما وراء هذه الأسوار ، ولنمض إلى بستان جثمانى .

وقال يوحنا بن زبدي : يا معلّم ، لم تقول لنا هذه الليلة : وداعاً ؟

وقال عيسى : « لا تُعثنوا قلوبكم ، إنما أترككم لأهبيّ لكم مكاناً في بيت ربّي ، فإذا أصبحتم في حاجة إليّ فسوف أعود إليكم ، وأنّى دعوتوني سمعت لكم ، وحيثما طلبتني أرواحكم فسألبي النداء .

لا تنسوا أن الظمأ يقود إلى معصرة النبيذ، وأن الجوع يقود إلى وليمة العرس .

وفي هذي شوقكم سوف تجدون ابن الإنسان ، إذ الشوق هو ينبوع النشوة ، ثم هو الطريق إلى الربّ » .

ثم تكلم يوحنا ثانية وقال : إذا كنت تاركنا حقاً فأنتى لنا البشرُ الجميل ، ثم ما بالك تتحدّث عن الفراق ؟

وقال عيسى : « إن الغزال المطارد يستشعر سهام الصائد قبل أن يحسّها في صدره ، وإن النهر ليحذر البحر قبل أن يدرك ساحله . ولقد مشى « ابن الإنسان » في سبيل الناس . وقبل أن تُهدي لوزةً أخرى زهراتها للشمس ، سوف تبلغ جذوري قلب حقل آخر » .

عندها قال سمعان بطرس : يا معلم ، لا تتركنا الآن ، ولا تحرمنا الأوس
بمحضرك . فحيثما تذهب سنذهب نحن أيضاً ، وحيثما تقم هناك نقم نحن أيضاً .
فوضع عيسى يده على كتف سمعان بطرس وابتسم إليه وقال : من يدرك فقد
تُتركني أنت قبل أن تمضي هذه الليلة وتتركني قبل أن أتركك .
وبغته قال : الآن فلنرحل عن هذا المكان .

ثم نزل من الخان وتبعناه . غير أننا عندما أدركنا بوابة المدينة تَلَقَّنا فإذا يهوذا
الإسخريوطي ليس بيننا . وجُزنا وادي جهنوم يتقدمنا عيسى كثيراً ، ثمشي
أحدنا في لصق الآخر .

وعندما أدركنا حرجة من حرجات الزيتون وقف والتفت إلينا وهو يقول :
«استريحوا هنا ساعة» .

كانت أمسية باردة مع أن الربيع كان في إبانه ، وشجيرات التوت قد تفتحت
براعمها ، وشجيرات التفاح مُزهرة ، والپساتين زاهية .

وسعى كل منا إلى جذع شجرة ورددنا وجمعتُ حولي ثوبي واضطجعت
تحت شجرة صنوبر .

غير أن عيسى تركنا ومشى وحده في حرجة الزيتون ، وكنت أرقبه
والآخرون نيام .

فكان يتلبث فجأة ثم يعود فيمشي مُصْعِداً وهابطاً ، يفعل هذا مرات كثيرة .
وما أكثر ما رأيت يولي وجهه نحو السماء ويبسط ذراعيه إلى الشرق وإلى
الغرب . أذكرُ أنه قال ذات مرة : « إن السماء والأرض ، والجحيم أيضاً ، هي من
الإنسان » .

والآن وقد ذكرت قوله فقد عرفت أن هذا الذي كان يضرب في حرجة الزيتون كان هو نفسه السماء في صورة إنسان ، وأن بطن الأرض ليس بداية وليس نهاية ، وما هو إلا معبر ووقفه ولحظة من لحظات العجب والدهش .
وأما عن الجحيم فقد رأيت أيضاً في ذلك الوادي الذي يُدعى جهنّم ، والذي يقع بين عيسى المسيح والمدينة المقدسة .

وإذ وقف عيسى هنالك ، وقبعت أنا في دثاري ، سمعت صوته يتكلم غير أنه لم يكن يتحدث إلينا . وثلاثاً سمعته يردّد كلمة « أبتاه » ، وكان ذلك كل ما سمعته .

وبعد برهة استرخت ذراعاه وظل واقفاً وكأنه شجرة سرو تمتدّ بين عيني والسماء .

وأخيراً عاد إلينا ثانية ثم قال : اصحوا وانهضوا ، فلقد حانت ساعتني . وها هي ذي الدنيا قد أطبقت علينا بسلاحها لحربنا .

ثم قال : منذ لحظة سمعتُ صوت ربّي ، فإذا أنا لم أركم بعد ، فاذكروا أن الغازي لن يُخلد إلى أمنٍ حتى يُغزى .

وعندما نهضنا واقتربنا منه كان وجهه أشبه بالسماء ذات النجوم تطلّ على الصحراء .

ثم قبلنا واحداً واحداً ، يضع قبلته على خدّ كل منا ، وعندما لامست شفّته خدّي كانتا حارّتين حرارة يد طفل محموم .

وفجأة سمعت جلبة عالية على البعد وكأنها لجمع ، وما إن دنت منا حتى تكشّفت عن عدد من الرجال يقتربون بالمصاييح والعصيّ جاءوا مهرولين .

وعندما أدركوا سياج الغيضة تركنا عيسى واتجه قُدُماً ليلقاهم ، وكان يهوذا الإسخريوطي يقودهم .

كانوا جنداً من الرومان بسيوفهم وحرابهم ورجالاً من بيت المقدس بهراواتهم ومعاولهم .

وتقدم يهوذا من عيسى وقبله ثم قال للرجال المسلحين : ها هوذا الرجل .

وقال عيسى ليهوذا : يا يهوذا ، لقد كنت معي من الصابرين ، وقد كنت خليقاً أن تفعل بالأمس ما فعله اليوم !

ثم التفت إلى الرجال المسلحين وقال : خذوني الآن وليكن سجنكم من السعة بحيث يتسع لهذه الأجنحة .

وعندما أطبقوا عليه وأمسكوا به كانوا كلهم يتصايحون ، غير أننا كنا من شدة الرعب نُؤلِّي بعيداً نطلب مأمناً . وجريت وحدي في حرجات الزيتون لا قوة لي فأعي ، ولا أملك صوتاً ينطق بغير خوفي . وخلال الساعتين أو الثلاث التي بقيت من تلك الليلة كنت أفرّ وأختبئ ، وعند الفجر وجدت نفسي في قرية قريبة من أريحا .

لماذا تركته ؟ لست أدري . ولكنني - وأسفاه - تركته . كنت جباناً ، ففررت من وجه أعدائه .

ثم أحسّ قلبي الألم والحزن والخزي ورجعت إلى بيت المقدس ، غير أنه كان قد أودع السجن ، وما كان بمقدور صديق أن يكلمه .

وصُلب ، وصنع دمه للأرض طينة جديدة .

أما أنا فلا أزال حياً ، أعيشُ على قرص الشَّهد الذي خلفته حياته الحلوة .

سمعان القيرواني ذلك الرجل الذي حمل الصليب عن عيسى

كنت في طريقي إلى الحقول حين رأيتَه يحمل صليبه وفي إثره جماهير
غفيرة .

عندها مشيتُ أنا الآخر إلى جواره .

وكم من مرة توقفتُ إعياء بما يحمل ، إذ كان منهك القوى .

وتقدم مني جندي روماني وقال : تعال ، إنك لقويّ متين البنية ، احمل
الصليب عن هذا الرجل .

وما إن سمعت هذه الكلمات حتى امتلأ قلبي زهُواً وكنت مُمتناً شكوراً .
وحملت عنه صليبه .

وكان ثقيلاً إذ كان من خشب الجوز أشرب أمطار الشتاء .

ونظر إليّ عيسى وعرقُ جبينه ينحدر على لحيته .

ثم تطلع إليّ ثانية وقال : « أتشرب أنت أيضاً من هذه الكأس ؟ لترشفنَّ
معي حقاً من حافته . . . إلى الأبد » .

وما إن قال هذا حتى وضع يده على كتفي الخالية ومشينا معاً نحو تل
الجماجم (*) .

(*) تل الجلجثة

وما أحسستُ إذ ذاك بثقل الصليب وإنما أحسستُ بيده فحسب ، وكانت أشبه بجناح الطائر فوق كتفي ، ثم أدركنا قمة التل حيث كانوا يزمعون أن يصلبوه .

عندها أحسست بثقل الصليب .

وما فاه بكلمة حينما أنفذوا المسامير في يديه وقدميه ، كما لم تصدر عنه همسة ، وما ارتجفت أطرافه تحت طرق المطرقة .

وخيل إليّ أن يديه وقدميه قد ماتت وأنها لن تحيا ثانية إلا عندما يغمرها الدم ، وخيل إليّ أيضاً أنه يطلب المسامير طلب الأمير الصولجان ، وأنه يتوق إلى أن يسمو إلى الذرى .

وما اختلج قلبي بالرتاء له إذ كان ذهولي فوق ما أطيع .

والآن أصبح هذا الرجل - الذي حملتُ صليبه - صليبيّ لي .

وإذا قُدر أن يقال لي ثانية : احمل صليب هذا الرجل ، فلسوف أحمله إلى أن ينتهي بي الطريق إلى القبر .

ولكني سوف أطلب إليه أن يضع يده على كتفي .

* * *

حدث هذا منذ سنين عديدة ، ولكنني ما زلت أفكر أبداً في ذلك «الرجل الحبيب» كلما اقتفيت الأخدود في الحقل ، وفي كل لحظة من تلك اللحظات الغافية التي تسبق النوم .

وما زلت أشعر «بيده» كالجناح ، هنا على كتفي اليسرى .



سيبوريا أم يهوذا ؟



كان ابني رجلاً طيباً صالحاً ، وكان بي رحيماً شفيقاً ، يحب قرابته وأهل بلده ، ويبغض أعداءنا الرومان المذمومين ، الذين كانوا يلبسون الحلل الأرجوانية وما نسجوا فيها خيطاً ولا جلسوا إلى نول ، والذين كانوا يجنون ويجمعون حيث لم يحرثوا أو ييدروا حبة .

وكان ابني في السابعة عشرة حين أمسك به وهو يرمي بالسهم كتيبة رومانية كانت تخترق كرمة لنا .

ولقد كان وهو في هذه السن الباكرة يتحدث إلى غيره من الشبان عن عظمة بلاده ، كما كان ينس بأشياء غريبة كثيرة ما كنت أفهمها .

كان ابني ، وكان ابني الوحيد .

غُذِّي بلبن هذين الشديين اللذين هما الآن يابسان . وكان أول ما درج في هذا البستان ممسكاً بهذه الأصابع التي هي الآن أشبه بالقصبات المضطربة .

وبهاتين اليدين نفسيهما ، وكانتا فتيتين غضبتين وكانهما من أعناب لبنان ، وضعت أول ما لبس من نعال في مندبل من الكتان أعطته إياي أُمِّي . وما زلت أحتفظ بهما في ذلك الصندوق إلى جوار النافذة .

كان بكري . وعندما بدأ يخطو بدأت أخطو ، إذ النساء لا يسعين إلا حين يقودهن أطفالهن .

وهم الآن يخبرونني أنه قضى بيديه وأنه رمى بنفسه من الصخرة السامقة ندماً على خيائته صديقه عيسى الناصري .

إني أعرف أن ابني مات . ولكنني لن أعترف بأنه خان أحداً ، فلقد كان يحب عشيرته وماكره غير الرومان .

كان ابني يسعى لرفعة بلاده ، وما كان شيء يجري على شفثيه أو يبدو في فعاله إلا وهو متصل بهذه الرفعة .

وعندما التقى بعيسى في الطريق العام تركني وتبعه . وكنت أدرك في قرارة نفسي أنه يخطئ حين يتبع إنساناً ما .

وعندما آذني بالوداع قلت له : إنه ليس مع الحق ، ولكنه لم يسمع لي .

إن أطفالنا لا يلقون بالألنا ، هم كتيار المدّ الجارف اليوم لا ينتصحنون بمدّ الأمس الجارف .

ورجائي إليك ألا تزيد في سؤالي عن ابني .

لقد أحببته وسأظل أحبه إلى الأبد .

ولو أن الحب يخالط اللحم ، إذن لكويته بأسياخ من الحديد ملتهبة لأنال السكينة ، غير أن الحب يخالط الروح ، وما نحن بباليه .

والآن ما أحب أن أضيف مزيداً . امض واسأل غيري من النساء اللواتي لهن من الشرف ما ليس لأم يهوذا .

امض إلى أم عيسى ، فهي بدورها تمسّ وقع السيف في قلبها وسوف تحدثك عني ، وسوف تعي .

امراة من بيبيلوس مرثية

ابكين معي يا بنات عشطروط ، وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً .
مُرْن قلوبكن أن تذوب وتفيض وتجري دموعاً من دم .
فهذا الذي قد صيغ من ذهب وعاج قد ولى .
في جوف الغابة الموحشة عدا عليه الخنزير البري وفي لحمه نفذت أنيابه .
وها هو ذا راقدٌ مشربٌ لون أوراق العام المنصرم .
ولن تثير خطاه من بعدُ البذور المستكنة في أحضان الربيع ،
ولن يطالعني صوته مع الفجر يدخل عليّ نافذتي .
وسوف أبقى إلى الأبد وحيدة .

* * *

ابكين معي يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً ،
فلقد مضى عني محبوبي ،
الذي كان يهمس كما تهمس الأنهار ،
والذي كان صوته وزمانه صنوين ،
والذي كان فمه ألماً دامياً استحال عذباً ،
والذي على شفثيه يغدو المرُّ شهداً .

* * *

ابكين معي يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً .
ابكين معي حول نعشه كما تبكي النجوم ،
وكما يساقط شعاع القمر كأوراق الزهور على جسده الجريح .
بللن بدموعكن أغطية فراشي الحريرية ،
حيث رأيت محبوبتي في أحلامي يرقد إلى جوارتي ،
فما إن نضوتُ عني ثوب الكرى حتى خلفني وراح .

* * *

أناشدكن يا بنات عشطروط وأنتن يا حبيبات تموز جميعاً ،
أن تكشفن صدوركن وتبكين وتخففن عني .
فلقد مات عيسى الناصري .



مريم المجدلية بعد ثلاثين عاماً بعث الروح

من جديد أقول : إن عيسى قهر بموته الموت ، ونهض من اللحد روحاً وقوة ، وسار بيننا يؤنس وحدتنا ويلمّ برياض الأمانا .

هو لا يرقد هناك في تلك الصخرة المفلوكة خلف الصخور .

ونحن الذين أحببناه رأيناه بهذه الأعين التي جعلها تُبصر ، ولمسناه بهذه الأيدي التي ألهمهما أن تمتد متطلّعة .

وإني بكم عارفة يا من لا تؤمنون به ، ولقد كنت من بينكم وإنكم لكثيرون ، غير أن عددكم إلى تناقص .

أحتمّ عليكم أن تكسروا عودكم وقيثاركم لتشعروا بما ينطويان عليه من نعم؟

أحتمّ عليكم أن تقطعوا الشجرة قبل أن يكون لكم إيمان بأنها مثمرة؟

لقد أبغضتم عيسى لأن نفرأ من بلاد الشمال قال إنه ابن للرب ، غير أنكم يكره بعضكم بعضاً ، لأن كلا منكم يرى نفسه أكبر من أن يكون أخاً لجاره .

لقد أبغضتموه لأن نفرأ قال : قد ولدته عذراء وليس من لقاح رجل .

وما تعرفون الأمهات اللاتي يمضين إلى القبور عذارى ، كما لا تعرفون الرجال الذين ينحدرون إلى قبورهم وحلوقهم ما تزال تغصُّ بشهوة الحياة .

إنكم لا تعلمون أن الأرض قد زُفَّت إلى الشمس ، وأن الأرض هي التي تدفعنا قُدمًا إلى الجبال والفيافي .

وإنَّ بين هؤلاء الذين يحبونه وأولئك الذين يبغضونه ، وهؤلاء الذين يؤمنون به وأولئك الذين لا يؤمنون ، لهوةٌ فاغرة .

ولكن عندما تقيم السنون على تلك الهوةِ جسراً ، فسوف تعرفون أن هذا الذي عاش بيننا لا يموت ، وأنه كان ابناً للرب كما نحن أبناؤه ، وأنه قد ولدته عذراء كما تلد الأرض وهي لا زوج لها .

ومن عجب أن الأرض لا تمدّ الجاحدين بالجذور التي تريد أن تمتصّ غذاءها ، ولا بالأجنحة التي بها يحلقون فينهلون ويرتوون بما في فضائها من ندى .

غير أنني أعرف ما أعرف ، وهذا حسبي .



رجلٌ من لبنان بعد تسعة عشر قرناً

أيها المعلم ، يا سيّد من شدا ،
يا مَنْ تملك الكَلِمَ غير المنطوق .
وُلِدت سبعاً ومِت سبعاً ،
منذ إمامك العَجَل وترحيننا الوجيه .
هأنذا أعيشُ ثانية ،
أحمل ذكرى يوم وليلة بين التلال ،
حينما علا بنا مدُّك .
ومن ثم طوّفتُ ببقاعٍ كثيرة وخُضتُ بحاراً عدّة .
وحيث تولّيتُ يقودني سرج أو يهْدِينِي شراع ،
كان اسمك صلاتي وحجّتي .
يحمدك الناس أو يجحدونك ،
والجحودُ غضبةٌ على الفشل ،
والحمدُ ترنيمَةُ الصائد الذي يؤوب من التلال بالزاد لرفيقتة .

* * *

إن صَحْبَكَ ما زالوا معنا عزاءً وسنّداً ،

وكذلك أعداؤك قوةً وطُمأنينةً . . . لأنهم يُترَعُونَ قلوبنا ثقةً بك وإيماناً .
أمك معنا ،

أرى بهاء وجهها في محيا الأمهات جميعاً ،

تُهدِّدُ بيدها المهاد في رفق ،

وتطوي بيدها الأكفان في حنان .

ولا تزال مريم المجدلية بيننا ،

هذه التي شربت خلّ الحياة ثم خمرها .

ويهوذا رجلُ الآلام وتوافه الأطماع ،

هو الآخر يجوب الأرض .

ما انفكّ يأكل نفسه حين لا يجد جوعه ما يأكله ،

ساعياً نحو ذاته الكبرى بتحطيم ذاته .

* * *

ويوحنا - الذي تاق شبابه إلى الجمال -

هنا يغني فلا يصيخُ السمعَ إليه أحد .

وسمعان بطرس المندفع الذي أنكرك علّه يعيش بعدك . . . من أجلك .

ها هو ذا الآخر يجلس مستدفئاً بنارنا ،

قد ينكرك ثانية قبل مطلع فجر يوم جديد .

غير أنه يريد أن يُصلب من أجلك ، ويعدّ نفسه غير جدير بالشرف .

ولا يزال قيافا وحنانيا يعيشان يومهما ،
ويقضيان بين المسيء والبريء .
ينامان على الفراش المريش ،
على حين يُسَاط هذا الذي حكما عليه جلدًا بالسياط .

* * *

والمرأة التي أخذت بالفسق ،
لا تزال هي الأخرى تسعى في شوارع مدننا ،
يُمضُّها الشوق إلى خبز لم يُخبز بعد ، وحيدة في بيت خال .
وبيلاطس البنطي هنا هو الآخر ،
يقف خاشعًا بين يديك ،
لم ينقطع عن مُساءلتك ،
غير أنه لا يجرو أن يجازف بمنصبه ، أو أن يتحدّى شعبًا أجنبيًا ،
وهو لا يزال يغسل يديه .
وإلى الآن ما زالت أورشليم تُمسك بالطُّسْت كما تمسك رومة بالإبريق .
وبين الاثنين ألوف وألوف من الأيدي تريد أن تغتسل لتنقى وتتطهر .

* * *

أيها المعلّم ، يا أمير الشعراء .
يا من يملك الكلمات ، تُلقَى وتُغنى .

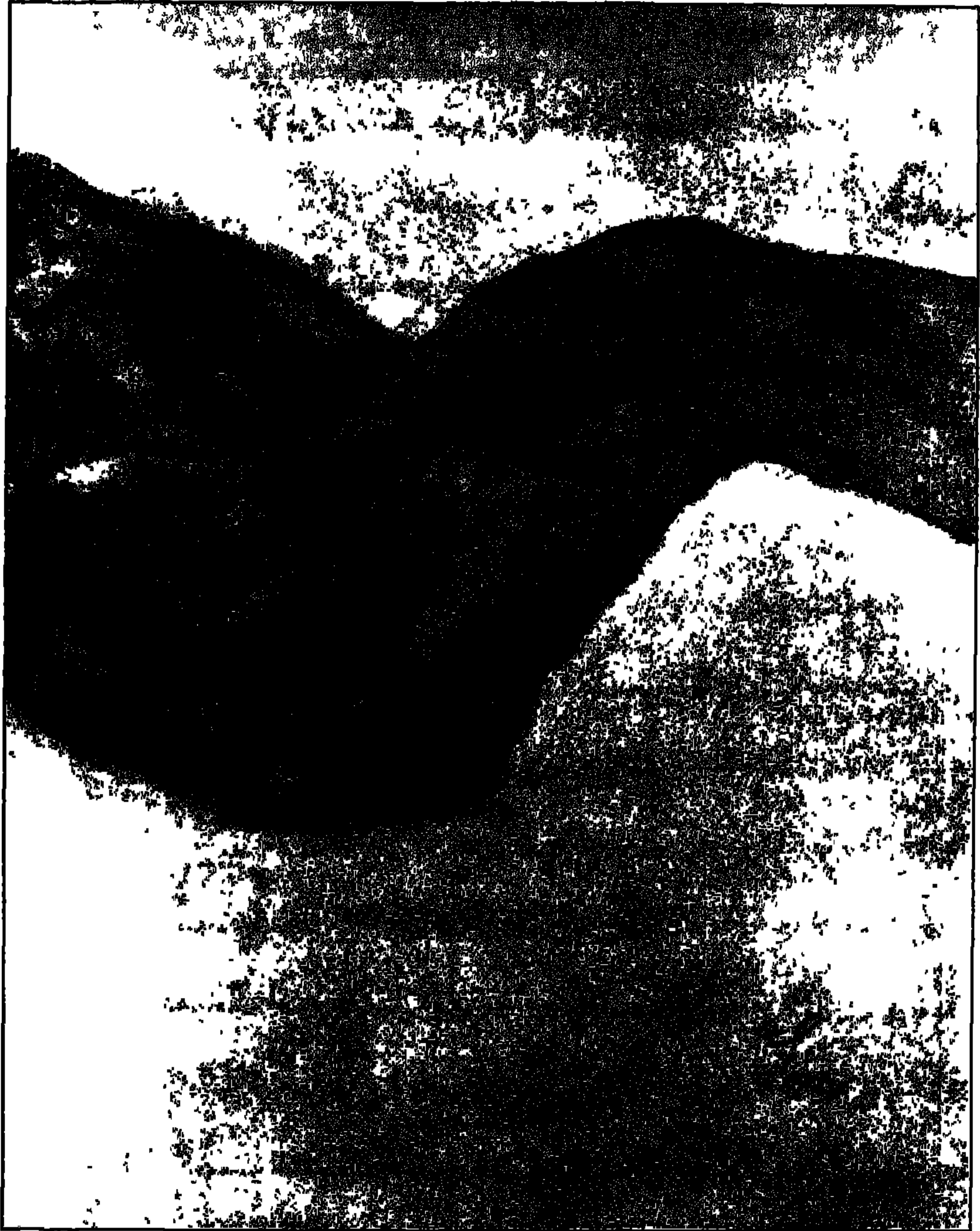
لقد شيدوا الهياكل ليأوي إليها اسمك .
وفوق كل مرتفع رفعوا صليبك ،
علامة ورمزاً لهداية أقدامهم الضالة ،
ولكن لا للمسرة التي هي أنت .
فإن مسرتك ربوة لا تصل إليها أنظارهم ،
وليست فيها راحةً لنفوسهم .
إنهم يبغون أن يمجّدوا رجلاً لا يعرفونه .
وأبيّ عزاءٍ لهم في رجلٍ مثلهم ، رجلٍ رقيقٍ مثل رقّتهم .
إله ، حبه أشبه بحبّهم ،
ورحمته ماثلة في رحمتهم .
هم لا يمجّدون الرجل ، الرجل الحيّ .
الرجل الأول الذي فتح عينيه يتطلع إلى الشمس بجفنين لا يرتجفان .
أجل . هم لا يعرفونه ، ولا يريدون أن يكونوا مثله .
إنهم يؤثرون أن يكونوا مجهولين ، يسرون في موكب المجهول .
بودّهم لو حملوا الأسي ، أساهم هم .
وما هم بواجدين في مسرتك راحة .
لا تلمس قلوبهم الكلمة العزاء في كلماتك ، ولا فيما تنطوي عليه من
نعم .

فألمهم ألمٌ صامت لا صورة له ،
يحييهم مخلوقات تعيش في عزلة لا يخرقها أحد ،
برغم أنهم محاطون بعشائريهم وبني جنسهم .
يعيشون في خوف ، لا يخطب ودهم أحد .
ومع ذلك لا يريدون أن يحيوا مستوحدين .
بودهم لو انحنوا نحو المشرق حين تهب الرياح من الغرب .
إنهم يدعونك ملكاً ،
ويريدون أن يكونوا في بلاطك .
يعلنون أنك المسيح المنتظر ،
ويرغبون هم أنفسهم لو مسحوا بالزيت المقدس .
أجل . يريدون أن يعيشوا متطفلين على حياتك .

* * *

أيها المعلم ، يا سيد من شدا ،
كانت دموعك أشبه بشأبيب مايو ،
وضحكائك أشبه بأمواج البحر الأبيض .
و حين تكلمت كانت كلماتك الهمسات النائية الخليقة أن تجري على
فاههم .

حين يقدر لتلك الشفاه أن تشتعل ناراً .



وضحكتَ من ذلك النخاع الذي تحويه عظامهم ،
ولمَّا يتهيأ له بعد أن يضحك .

وبكيتَ على عيونهم المتحجرة التي لم تذرِفُ الدمعَ بعد .
وكان صوتك لفكرهم وفهمهم أبا ،
وكان صوتك لكلماتهم وأنفاسهم أمّا .

* * *

وُلدتُ سبعاُ ومِتُّ سبعاُ .
وإنني الآن أعيشُ ثانيةً ، وإنني لأراك
المحاربَ على رأس المحاربين ،
والشاعرَ فوق الشعراء ،
والملكَ فوق الملوك جميعًا ،
ورجالا عاريًا - أو يكاد - بين رفاق الطريق .
ومع كل يوم يحني الكاهن رأسه حين يلفظ اسمك ،
ومع كل يوم يقول الشحاذون :

« من أجل عيسى » أعطونا درهمًا لنشترى خبزًا ،
يسأل بعضنا بعضًا ، ونحن في الحق إنما نسألك .
فلأنت أشبه بالمدّ المتدفق في ربيع حاجتنا ورغبتنا .
وعندما يحلّ الخريف أشبه بالجزر في انحساره ،

يجري اسمك على شفاسنا جهراً أو همساً .
يا مالك الرحمة السرمدية .

* * *

أيها المعلم . مالك ساعات وحدتنا ،
هنا وهناك بين المهد واللحد ، ألقى إخوتك الصامتين ،
الرجال الأحرار غير المصنّدين ،
أبناء أمك : الأرض والفضاء ،
أشبه بالطير في جو السماء ،
وزهرات الزنبق في الحقول ،
يحيون حياتك ويفكرون فكرك ،
ويرجعون صدى أنشودتك ،
ولكنهم فارغوا الأيدي .
وما صلبوا الصلْبَ الأكبر ، وفي هذا عذابهم .
فالدنيا تصلبهم مع كل يوم
ولكن بوسائل يسيرة .
فالسما لا تضطرب ،
والأرض لا تتمخض عن موتاها .
هم يُصلّبون وليس من يشهد كربهم .

يلفتون وجوههم يَمَنَةً ويسرة ،
فلا يجدون من يَعِدُّهم منزلة في ملكوته .
وهم على هذا يودّون لو صُلبوا مرة ثم مرة ،
لعل ربّك يكون لهم ربّاً ،
ومولاك يكون لهم مولى .

* * *

أيها المعلّم ، يا سيّد مَنْ أحبّ .
إن الأميرة ترقب مقدمك في مخدعها المعطر ،
وكذا المرأة المتزوجة ولا زوج في محبستها ،
والبغيّ التي تطلب خبزاً في طرقات عارها ،
والراهبة في ديرها ولا زوج لها .
وكذلك المرأة العاقر أمام نافذتها ،
حيث يرسم الصقيع الغابة على صفحة زجاجها ،
فُيطالئك في هدا التناسق ،
ويودّدن لو كُنّ لك أمّا . . . فيستشعرن السكينة .

* * *

أيها المعلّم ،
ياسيد الشعراء

ربَّ رغباتنا المكبوتة ،
إن قلب العالم ينتفض مع خفق قلبك ،
غير أنه لا يحترق مع أغنيتك .
تُصغي الدنيا إلى صوتك في وداعة وحبور ،
لكنها لا تنهض من مجلسها ،
فتسلقَّ ظهور تلالك .
يريد الإنسان أن يحلِّمَ حلمك ولا يرغبُ في أن يستيقظ على فجرِكَ ،
الذي هو حلمه الأكبر .
وهو يودُّ لو يبصر ببصيرتك ،
لكنه لا يحب أن يجرَّ قدميه الثقيلتين إلى عرشك .
ومع هذا فإن كثيرين قد تُوجوا باسمك
واتشعوا بقوتك ،
وجعلوا من مقدمك الذهبيّ تيجانًا لرؤوسهم وصوالج لأيديهم .

* * *

أيها المعلم ، يا سيّد النور ،
الذي تسكن عينه أنامل الضّرير المتلمّسة ،
إنك ما تزال رهن امتهان وسخرية ؛
إنسانًا هو أضعف من أن يكون إلهاً ،

والهأ أكبر شهبأ بالإنسان من أن يعبده الناس .

إنما قُدَّاسهم وترتيلهم ،

ومناسكهم وتسبيحهم ، من أجل أنفسهم الحبيسة .

ولست منهم إلا ذاتهم النائبة ، وصيحتهم القاصية ، وعذابهم المرير .

* * *

غير أنك أيها المعلم ، يا ذا القلب السماوي ، ويا فارس أحلامنا الصافية ،

ما زلت تسري في يومنا .

لن تُبطئ الأقواس ولا الحراب خُطاك .

تمرق بين سهامنا جميعاً وتثر علينا بسماتك من علي .

وأنت على أنك أصغرنا جميعاً ،

أب لنا طراً .

* * *

أيها الشاعر والشادي ، يا ذا القلب الكبير .

فليبارك الله اسمك ،

والرحم التي حملتك جنينا ، والثدي الذي أرضعك ،

ولتشمِلنا جميعاً رحمةُ الله . . .



أقوال النقاد في هذا الكتاب

لم أكد أتصفح كتاب « عيسى » حتى طالعتنى سطوره ببيان مضيء عذب ، هو خير جسد لخير روح . ولست أشك في أن الكتاب قد ازدهى بجمال جديد في هذه الحلة العربية السابغة . وسوف أقرؤه وأقرؤه وأنا واثق بمتعته المتجددة في هذا الأسلوب الأخاذ .

توفيق الحكيم

استطاع الدكتور ثروت عكاشة أن ينقل جبران خليل جبران في كتابه هذا من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية بأسلوب جبران العربي . والنقل من لغة إلى لغة مثل نقل ماء سائل من زجاجة إلى زجاجة أخرى ، لا بد من أن ينقص شيء في أثناء حركة النقل . ولكن يبدو من اتساق كتاب عيسى أن الدكتور ثروت اختار « القمع » الذي لا يدع قطرة ماء واحدة تسيل وهو ينقل جبران من زجاجة اللغة الإنجليزية إلى زجاجة اللغة العربية .

كامل الشناوي

اللوحات التي يرسمها جبران للمسيح مزيج من الرأي والشعور . وهي لهذا تجمع في أسلوبها بين طبيعة النثر اليومي أحيانا والنثر الفكري ، وتبلغ مشارف الشعر حين تكشف عن الشعور والوجدان ، ويواجه المترجم فيها أغلب «مشكلات الترجمة وأساليبها المختلفة» ، فبعضها يكتفي بنقل «كلام» المتحدث ، وبعضها يفرض الارتفاع بالأسلوب ليحمل ما يحمل النص من فكر . ومنها نصوص تقترب من طبيعة الشعر بل قد تصبح شعرا خالصا ، وإن خلت من الوزن . وقد ظل الدكتور ثروت حريصا على أن يواجه كل نص بما تقتضيه طبيعته ، أمينا على أن تحمل الترجمة نص الأصل وروحه ومستواه البلاغي . لكنه مع ذلك وجد في النصوص الشعرية المبتوثة في كثير من رؤى الكتاب مجالا طيبا لتقديم نماذج من النثر الشعري الرفيع الذي تمتزج فيه الترجمة بإبداع لا يبعد عن النص ، لكنه مع ذلك يفصح عن القدرة الخاصة للمترجم ، وإحساسه الشخصي بمفردات اللغة وأساليبها ومجازاتها وإيقاعها العام . ويجد المترجم في مثل هذه النصوص الشعرية الصياغة ، الرومانسية التجربة ، مجالا مواتيا للاختيار من بين مفردات اللغة وأساليبها ، ما يرى أنه أقرب إلى طبيعة النص المترجم في رؤيته وبيانه ، وبخاصة إذا كان المترجم «صاحب أسلوب» . والدكتور ثروت في ترجماته يبدو من «أصحاب الأساليب» الذين يحرصون على التميز في مفردات العبارة وبنائها وإيقاعها العام .

د . عبد القادر القط

قليل ما نجد بين الذين يتصدون للترجمة عندنا من يكاد «يتخصص» تقريبا في ترجمة كاتب معين . . ويخيل إليّ أن جبران خليل جبران بالذات لا يمكن أن يترجمه إلا من يحبه ويهيم به . إنه كاتب لا يمكن أن يترجمه محترف إنما يترجمه عاشق لفنه وأسلوبه ووجدانه . وترجمات الدكتور ثروت عكاشة بأسلوبه البلّوري الشفاف تنم عن هذا الهوى

أحمد بهاء الدين

لقد تغلغل الدكتور ثروت عكاشة في فهم روح جبران حتى أدرك تغير أسلوبه في هذا الكتاب عن غيره فغير بيانه حتى يتمشى مع هذا البيان الرصين . وأيا كان رأينا في فلسفة جبران ومقامه الفني بين الشعراء فلن نختلف في أن ثروت عكاشة قد جدّد في الأدب العربي الحديث تياراً من أهم تياراته وأشدها نفعاً للعاطفة والخيال ، ألا وهو تيار الشعر الحر الذي يحرر الوجدان من نير الزخرف الشكلي ويزيل الحدود التقليدية بين عمود الشعر وعمود النثر كما صورها أصحاب البيان القديم .

لويس عوض

الحق أن كتاب «عيسى» كتاب خالد ممتع . ولقد أسدى الدكتور ثروت عكاشة بنقله إلى اللغة العربية في أسلوبه الرائع الخلاب جميلاً سيحفظه له قراؤها أبد الدهر . وما أحوج المجتمع الحديث إلى كتب عن رسل السلام كي تعيد- ولو إلى درجة ما- إلى نفوس أبنائه الطمأنينة والهدوء والقيم الإنسانية الأزلية التي يجب أن تربط الناس بعضهم ببعض وأن تربطهم بالله جل جلاله .

أحمد نجيب هاشم

كأن المترجم شاء أن يضع كل النقط والحروف أمام قضاة قساة لا يغفرون الهنة البسيطة ولا يقبلون عنها عذراً ، فانطلقت الترجمة جميلة مختالة بيئاتها تستهوي القلب والعقل في نبضة فكرية يذوب معناها في جمال لفظها ويعطر جمال لفظها عمق معناها . وأنا هنا لا أجامل الدكتور ثروت عكاشة وأصارحه أنني لم أتذوق مثل هذا الجمال ، فقد سرقني ليلتين كاملتين حتى صياح الديكة .

موسى صبري

الحق أن ثروت عكاشة قد قدم بعمله هذا نموذجاً رائعاً يجب أن نحتذيه ونعمّقه في ترجمة الأعمال الكبيرة إلى لغتنا العربية ، وهو ألا يقدم المترجم الأمين المخلص على ترجمة عمل لأحد من الكتاب قبل أن يعكف على دراسته في جميع أعماله . . . ولقد استطاع ثروت عكاشة بفضل هذا الصراع أن يحدد لنا بالضبط أبعاد نظرة جبران الرومانسية وعمقها وأن يضعها وجهاً لوجه أمام أبعاد النظرة الواقعية وعمقها .

لطفي الخولي

أروع ما يمكن أن تكون صلة كهذه بين كاتبين ، فإنها تستطيع أن تنقل التعاطف والتجاوب بينهما إلى قوة خلاقه حتى ليصعب على القارئ أن يميّز بين المنقول والأصل إذا خرج القلم عن الأصل لسبب أو لآخر . ولا شك أن شاعرية جبران وشفافيته وحساسيته المفرطة تنقلها إلى القارئ العربي ألفاظ ثروت عكاشة وتركيباته اللغوية وصياغته للجمل والعبارات . . . تحية لجبران وتحية لثروت عكاشة ومرحباً بباقة جديدة من الحب والصفاء خير هدية للعالم في أيامه العصيبة .

سعد الدين وهبه

ثبت ببليوجرافي لكاتب هذه السطور

موسوعة تاريخ الفن : العين تسمع والأذن ترى (*)

١٩٧١	أولى	طبعة	دراسة	١ - الفن المصري القديم : العمارة
١٩٩٩	ثالثة	طبعة	دراسة	
١٩٧٢	أولى	طبعة	دراسة	٢ - الفن المصري القديم : النحت والتصوير
١٩٩٩	ثالثة	طبعة		
١٩٧٦	أولى	طبعة	دراسة	٣ - الفن المصري القديم : الفن السكندري والقبطي
١٩٩٩	ثانية	طبعة		
١٩٧٤	أولى	طبعة		٤ - الفن العراقي القديم
١٩٧٨	أولى	طبعة	دراسة	٥ - التصوير الإسلامي : العربي والديني
١٩٨٣	أولى	طبعة	دراسة	٦ - التصوير الإسلامي : الفارسي والتركي
١٩٨١	أولى	طبعة	دراسة	٧ - الفن الإغريقي
١٩٨٩	أولى	طبعة	دراسة	٨ - الفن الفارسي القديم
١٩٨٨	أولى	طبعة	دراسة	٩ - فنون عصر النهضة (الرينيسانس والباروك)
١٩٩٦	فاخرة	طبعة	دراسة	الرينيسانس
١٩٩٧	فاخرة	طبعة	دراسة	الباروك
١٩٩٨	فاخرة	طبعة	دراسة	الروكوكو
١٩٩١	أولى	طبعة	دراسة	١٠ - الفن الروماني

(*) (الصور الملونة بالطبعات الأولى من الأجزاء العشرة الأولى من هذه الموسوعة طبعت بمؤسسة رينبرد للطباعة بلندن على نفقة المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو»).

١٩٩٣	أولى	طبعة	دراسة	١١ - الفن البيزنطى
١٩٩٤	أولى	طبعة	دراسة	١٢ - فنون العصور الوسطى
١٩٩٥	أولى	طبعة	دراسة	١٣ - التصوير المغولى الإسلامى فى الهند
١٩٨٠	أولى	طبعة	دراسة	١٤ - الزمن ونسيج النغم
١٩٩٥	ثانية	طبعة	دراسة	(من نشيد أبوللو إلى أوليثيه ميسيان)
١٩٨١	أولى	طبعة	دراسة	١٥ - القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية
١٩٩١	ثانية	طبعة	دراسة	
١٩٧٨	أولى	طبعة	دراسة	١٦ - الإغريق بين الأسطورة والإبداع
١٩٩٤	ثانية	طبعة		
١٩٨٠	أولى	طبعة	دراسة	١٧ - ميكلانجلو
١٩٧٤	أولى	طبعة	دراسة	١٨ - فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى
١٩٩٢	ثانية	طبعة		[أثر إسلامى مصور]
١٩٨٧	أولى	طبعة	دراسة	١٩ - معراج نامه [أثر إسلامى مصور]

أعمال الشاعر أوفيد

١٩٧١	أولى	طبعة	ترجمة	٢٠ - ميتامورفوزيس [مسخ الكائنات]
١٩٩٧	رابعة	طبعة		
١٩٩٧	خامسة	مكتبة الأسرة		
١٩٩٥	أولى	طبعة	ترجمة	٢١ - آرس أماتوريا [فن الهوى]
١٩٩١	ثالثة			

أعمال جبران خليل جبران

١٩٥٩	أولى	طبعة	ترجمة	٢٢ - النبى : لجبران خليل جبران
١٩٩٩	تاسعة	طبعة		
١٩٦٠	أولى	طبعة	ترجمة	٢٣ - حديقة النبى : لجبران خليل جبران

١٩٩٩	ثامنة	طبعة	
١٩٦٢	أولى	طبعة	٢٤- عيسى ابن الإنسان : لجبران خليل جبران ترجمة
١٩٩٩	خامسة	طبعة	
١٩٦٣	أولى	طبعة	٢٥- رمل وزبد : لجبران خليل جبران ترجمة
١٩٩٩	سادسة	طبعة	
١٩٦٥	أولى	طبعة	٢٦- أرباب الأرض : لجبران خليل جبران ترجمة
١٩٩٩	رابعة	طبعة	
١٩٨٠	أولى	طبعة	٢٧- روائع جبران خليل جبران . الأعمال المتكاملة ترجمة
١٩٩٠	ثانية	طبعة	
١٩٦٠	أولى	طبعة	٢٨- كتاب المعارف لابن قتيبة ترجمة
١٩٩٢	سادسة	طبعة	
١٩٦٥	أولى	طبعة	٢٩- مولع بقاجنر : لبرناردشو ترجمة
١٩٩٢	ثانية	طبعة	
١٩٧٥	أولى	طبعة	٣٠- مولع حذر بقاجنر دراسة نقدية
١٩٩٣	ثانية	طبعة	
١٩٦٧	أولى	طبعة	٣١- المسرح المصرى القديم : لإثنين دريوتون ترجمة
١٩٨٩	ثانية	طبعة	
١٩٧١	أولى	طبعة	٣٢- إنسان العصر يتوج رمسيس ترجمة
١٩٦٤	أولى	طبعة	٣٣- فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد ترجمة
١٩٨٩	ثانية	طبعة	طومسون : لبيير دانيوس
١٩٥٢	أولى	طبعة	٣٤- إعصار من الشرق أو جنكيزخان دراسة
١٩٩٢	خامسة	طبعة	
١٩٥٠	أولى	طبعة	٣٥- العودة إلى الإيمان : لهنرى لنك ترجمة
١٩٩٦	رابعة	طبعة	

١٩٤٨	أولى	طبعة	ترجمة	٣٦- السيد آدم : ليات فرانك
١٩٦٥	ثانية	طبعة		
١٩٥٢	أولى	طبعة	ترجمة	٣٧- سروال القس : لثورن سميث
١٩٧٦	ثانية	طبعة		
١٩٤٢	أولى	طبعة	ترجمة	٣٨- الحرب الميكانيكية : للجنرال فولر
١٩٥٢	ثانية	طبعة		
١٩٦٠	أولى	طبعة	ترجمة	٣٩- قائد البانزر : للجنرال جوديريان
١٩٥١	أولى	طبعة	تأليف بالمشاركة	٤٠- حرب التحرير
١٩٦٧	ثانية	طبعة		
١٩٤٤	أولى	طبعة	ترجمة بالمشاركة	٤١- تربية الطفل من الوجهة النفسية
١٩٤٥	أولى	طبعة	ترجمة بالمشاركة	٤٢- علم النفس فى خدمتك
١٩٨٤	أولى	طبعة	دراسة	٤٣- مصر فى عيون الغرباء من الرحالة
١٩٩٩	ثانية	طبعة		والفنانين والأدباء (١٨٠٠ - ١٩٠٠)
١٩٨٨	أولى	طبعة	تأليف	٤٤- مذكراتى فى السياسة والثقافة
١٩٩٠	ثانية	طبعة		
١٩٩٩	ثالثة	طبعة		
١٩٩٠	أولى	طبعة	إعداد وتحرير	٤٥- المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية [إنجليزى- فرسى- عربى]
١٩٩٩	أولى	طبعة	دراسة	٤٦- موسوعة التصوير الإسلامى

بالفرنسية

Ramsès Re-Couronné: Hommage Vivant au Pharaon Mort, " - ٤٧
UNESCO ' 1974.

بالإنجليزية

In The Minds of Men. Protection and Development of Mankind's Cultural Heritage. "UNESCO " 1972. - ٤٨

The Muslim Painter and the Divine. The Persian Impact on Islamic Religious Painting. Rainbird Publishing Group, Park Lane Publishing Press. London 1981. - ٤٩

The Miraj - Mameh : A Masterpiece of Islamic Painting. Pyramid Studies and other Essays Presented to I.E.S. Edwards, The Egypt Exploration Society. London 1988. - ٥٠

أبحاث

The Portrayal of The Prophet. The Times Literary Supplement, 31 * December 1976.

**Problématique de la Figuration dans l'art Islamique. *
La Figuration Sacrée.
La Figuration Profane.
Plastique et musique dans l'art pharaonique.
Wagner entre la théorie et l'application.**

**سلسلة محاضرات ألقى بالكوليج ده فرانس بباريس
خلال شهرى يناير ومارس ١٩٧٣ .**

Annuaire du Collège de France , 73 Année. Paris, 11, Place Marcelin Bertholet 1973.

- * المشكلات المعاصرة للفنون العربية . مؤتمر منظمة اليونسكو المنعقد بمدينة الحمامات . تونس ١٩٧٤ .**
- * حرية الفنان . لمنظمة اليونسكو . نشر بمجلة عالم الفكر . المجلد الرابع يناير ١٩٧٤ . الكويت .**
- * رعاية الدولة للثقافة والفنون . محاضرة ألقى بنادى الجسرة الثقافى بالدوحة . (دولة قطر) . فبراير ١٩٨٩ .**

- * سبيل إلى تعميم مدن التكنولوجيا « تكنوبوليس » في الوطن العربي . دراسة لندوة العالم العربي أمام التحدي العلمي والتكنولوجي . معهد العالم العربي بباريس . يونيو ١٩٩٠ .
- * إطلالة على التصوير الإسلامي العربي والفارسي والتركي والمغولي . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي بأبي ظبي . أبريل ١٩٩١ .
- * الدولة والثقافة . وجهة نظر من خلال التجربة . محاضرة بندوة الثقافة والعلوم . دبي . نوفمبر ١٩٩٣ .
- * التصوير الإسلامي بين الإباحة والتحریم . بحث ألقى في الدورة العاشرة لمؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمّان . الأردن . في المدة من ٥ إلى ٧ يولييه ١٩٩٥ .
- * تساؤلات حول هوية التصاوير الجدارية في پايستوم . بحث ألقى في مؤتمر « مصر إيطاليا منذ القدم حتى العصور الوسطى » المنعقد بروما في المدة من ١٣ إلى ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ .
- * الفن والحياة . محاضرة أقيمت بيهو قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة في ٦ مارس ١٩٩٦ . الموسم الثقافي الفني لجامعة القاهرة ، ثم في المجمع الثقافي بأبي ظبي . أبريل ١٩٩٦ .
- * نظرية الفن . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي . إبريل ١٩٩٦ .
- * التطهر النفسي من خلال الفن . محاضرة أقيمت بدعوة من مجلة الطب النفسي (محاضرة عكاشة) بفندق مريديان القاهرة . يولييه ١٩٩٧ .
- * فنون عصر النهضة «الرنيسانس» . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي في ١١ نوفمبر ١٩٩٧ .
- * فنون عصر النهضة «الروكو» . محاضرة أقيمت بالمجمع الثقافي . أبو ظبي في ١٠ مارس ١٩٩٩ .

المحتويات

.....	عيسى ابن الإنسان
.....	يعقوب زبدي
.....	حنة أم مريم
.....	عساف الشهير بخطيب صور . عن حديث عيسى
.....	مريم المجدلية . عن لقائها عيسى للمرة الأولى
.....	فيلمون الصيدلاني اليوناني . عن عيسى شيخ النطاسيين
.....	قيافا الكاهن الأكبر
.....	يونا زوج قهرمان هيرودس . عن الأطفال
.....	حكيم العجم في دمشق . عن الآلهة في الغابر والحاضر
.....	داوود: واحد من الأتباع . عن عيسى الواقعي
.....	لوقا . عن المنافقين المرائين
.....	متى . موعظة الجبل
.....	يوحنا بن زبدي . عن أسماء عيسى المختلفة
.....	كاهن حدث من كفر ناحوم . عن عيسى المشعوذ
.....	ثري من سبط لاوي كان في جوار الناصرة . عن عيسى النجار الماهر
.....	راع في جنوب لبنان . مثل من الأمثال
.....	يوحنا المعمدان يتحدث إلي تلميذ من تلاميذه
.....	يوسف الرامي . عن أهداف عيسى الأولية
.....	نشائيل . عيسى لم يكن وادعاً

- ٨٩ سابا الأنطاكي . شاول الطرسوسي
- ٩١ من سالومي إلى صديقة لها . أمنية لم تتحقق
- ٩٥ راحيل إحدى تلميذاته . عن عيسى الرؤيا والإنسان
- ٩٨ كلوبا من بيت خيرون . عن الشرائع والأنبياء
- ١٠٠ نعمان الجداريني . عن موت أسطفانوس
- ١٠٢ توما . عن شكوك أسلافه
- ١٠٥ المودام المنطقي . عيسى المتمرّد
- ١٠٧ إحدى المريمات . عن حزنه وبسمته
- ١٠٨ رومانوس الشاعر الروماني . عيسى الشاعر
- لاوي أحد التلاميذ . عن أولئك الذين ودّوا لو ضيّقوا الخناق
- ١١٠ على عيسى
- ١١٣ أرملة من الجليل . عن قسوة عيسى
- ١١٥ يهوذا قريب عيسى . عن موت يوحنا المعمدان
- ١١٨ رجل من الصحراء . عن الصيارفة
- ١٢٠ بطرس . عما سيُطالع به الغد أصحابه
- ١٢٢ ملاخي البابلي الفلكي . معجزات عيسى
- ١٢٥ فيلسوف . عن الدهش والجمال
- ١٢٨ أوريا : شيخ من الناصرة «كان غريباً على بيئتنا»
- نيقوديموس الشاعر أقل شيوخ مجلس اليهود السنهدريم سنًا .
- ١٣٠ عن الحمقى والمزيفين
- ١٣٤ يوسف الرامي بعد عشر سنوات . النهران الجاريان في قلب عيسى .
- ١٣٥ جرجس البيروني . عن الغرباء
- ١٣٧ مريم المجدلية
- ١٣٨ من يوثام الناصري إلى رجل من أهل رومه . عن الحياة والوجود . . .

- ١٤٠ إفرام رجل من أريحا . حفل عرس آخر .
- ١٤١ برقا: تاجر من صور . عن البيع وعن الشراء .
- ١٤٣ فوميا كبيرة الكاهنات في صيدون . ضراعة .
- ١٤٧ بنيامين الكاتب . دع الموتى يدفنون موتاهم .
- ١٤٨ زكا . عن مصير عيسى .
- ١٥٠ يوناثان . بين زنايق الماء .
- ١٥٢ حنة من بنات بيت صيدا عام ٧٣ تتحدث عن عمّتها .
- ١٥٦ منسى : محام في بيت المقدس . عن عيسى وإيماءاته .
- ١٥٧ يفتاح من القيصرية . رجل ضجر بعيسى .
- ١٥٩ يوحنا الحبيب حين امتد به العمر . عن يسوع الكلمة الأولى .
- ١٦١ حديث منّوس الپومبي إلى رجل من اليونان عن آلهة الساميين .
- ١٦٣ بيلاطس البنطي . عن العقائد والشعائر الشرقية .
- ١٦٨ برثولماوس في إفسوس . عن الأرقاء والمنبوذين .
- ١٧١ متى . عن عيسى عند جدار السجن .
- ١٧٢ أندراوس . عن الساقطات .
- ١٧٥ رجل غني . عن التملك .
- ١٧٧ يوحنا في جزيرة بطمس . عن عيسى الرحيم .
- ١٨٢ بطرس . عن الجار .
- ١٨٣ إسكافي من أورشليم . رأي محايد .
- ١٨٤ سوسنة الناصرية جارة لمريم . عن طفولة عيسى وشبابه .
- ١٩٣ يوسف الملقب «يوستوس» [العادل] . عيسى عابر السبيل .
- ١٩٤ فيليپوس . حين مات ؛ مات الناس .
- ١٩٦ بربرة اليمونية . عن عيسى حين ينفذ صبره .
- ١٩٧ من زوجة بيلاطس إلى سيدة رومانية . عن الحب والقوة .

- ١٩٨ رجل خارج بيت المقدس . عن يهوذا الإسخريوطي
- ٢٠٢ سر كيس : راع يوناني عجوز يدعى المجنون . عيسى وپان
- ٢٠٦ حنانيا رئيس الكهنة . عيسى رجل من الغوغاء
- ٢٠٨ امرأة من جارات مريم . مرثية
- ٢١٠ آحاز البدين صاحب فندق . العشاء قبل الفصح
- ٢١٣ بارباس . كلمات عيسى الأخيرة
- ٢١٥ كلوديوس قائد روماني . عيسى الرواقي
- ٢١٧ يعقوب . العشاء الأخير
- ٢٢٣ سمعان القيرواني : ذلك الرجل الذي حمل الصليب عن عيسى
- ٢٢٥ سيوريا أم يهوذا
- ٢٢٧ امرأة من بيلوس . مرثية
- ٢٢٩ مريم المجدلية بعد ثلاثين عامًا . بعث الروح
- ٢٣١ رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرنًا
- ٢٤٢ أقوال النقّاد في هذا الكتاب
- ٢٤٦ ثبت بيليو جرافي لصاحب هذه الترجمة